٤- ما بين بدء الوحي إلى الهجرة المباركة

إشراق شمس النبوة

عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت: «أول ما بُدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَق الصبح، ثم حُبِّب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه - وهو التعبد- الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ. قال: «**ما أنا بقاريء**». قال: «**فأخذني فغطني حتى بلغ منيِّ الجهد ثم أرسلني**» فقال: اقرأ. قلت: «**ما أنا بقاريء، فأخذني فغطني الثانية، حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني**»، فقال: اقرأ، فقلت: «**ما أنا بقاريء، فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني**» فقال: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ [العلق: ١-٣]، فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال: «**زملوني، زملوني**». فزملوه حتى ذهب عنه الروع. فقال لخديجة وأخبرها الخبر: «**لقد خشيت على نفسي**»، فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَلّ، وتكسب المعدوم، وتقرى الضيف، وتعُين على نوائب الحق، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزُي -ابن عم خديجة- وكان امرءًا تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيرًا قد عمي فقالت له خديجة: يا ابن عم، اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخي، ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزل الله على موسى، ياليتني فيها جذعًا، ليتني أكون حيًا إذا يخرجك قومك. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «**أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ؟**» قال: نعم؛ لم يأت رجلٌ قط بمثل ما جئت به إلا عودى، وإن يدركني يومك أنصُرْكَ نصرًا مؤزرًا، ثم لم ينشب ورقة أن توفى، وفتر الوحي[1].

(١) رواه البخاري (١/ ٣٠، ٣١) بدء الوحي، وفي التفسير، وفي التعبير، ومسلم (٢/ ١٩٧-٢٠٤) الإيمان.

فهذه قصة بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ، والله عَزَّ وَجَلَّ إذا أ راد شيئًا هيأ أسبابه حتى يظهر شيئًا فشيئًا، فأوّل ذلك الرؤيا الصادقة وهي جزء من أجزاء النبوة بالنسبة للمؤمن، وحبب إليه ﷺ الخلاء وهو الابتعاد عن الخلائق، وذلك من أجل التعبد والخلوة بالله عَزَّ وَجَلَّ، وكيف لا تتعلق نفس النبي محمد ﷺ بالعبادة وتحبب إليها وهو النبي الخاتم الذي يعدَّه الله عَزَّ وَجَلَّ لإخراج البشرية من الظلمات إلى النور، والوصول إلى المراتب العظيمة والارتفاع إلى المنازل العالية لا يكون بيسرٍ وسهولة، و لكن بمُعاناة ومشقة، وهذا ما يشير إليه ضم جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ لرسولنا ﷺ حتى بلغ منه الجهد، وإن كانت الدعوة تحتاج إلى جهد ومشقة ومُكابدة، فتلقي الوحي كذلك كان غالبه بجهد ومشقة ومكابدة، كما أشار إليه قوله ﷺ وقد سئل كيف يأتيك الوحي؟ فقال: «**أحيانًا يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليَّ فَيُفْصَمُ عنيِّ وقد وعيت عنه ما قال، وأحيانًا يتمثل لي الملك رجلًا فيكلمني فأعي ما يقول**».

قالت عا ئشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : «ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه؛ وإن جبينه ليتفصَّدُ عرقًا»(١) .

وإن كان الدعاء إلى الله عَزَّ وَجَلّ يُعانون مشاق الدعوة، فإن الرسل الكرام لعظيم أجرهم وجليل قدرهم يجمعون بين معاناة الدعوة والتلقي عن الله عَزَّ وَجَلّ، وهم كما قال النبي ﷺ : «**أشد الناس بلاءً الأنبياء**» (٢).

وفي الحديث من الفوائد والآثار الإيمانية:

١- فضل اعتزال أهل السوء والمعاصي، وبركة الخلوة من أجل العبادة والتقرب إلى الله عَزَّ وَجَلّ ودل عليها كذلك قول الله عَزَّ وَجَلَّ حاكيًا عن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ :

---

(١) رواه البخاري (١/ ٢٥،٢٦) بدء الوحي .

(٢) رواه الترمذي (٩/ ٢٤٣) الزهد وقال: هذا حديث صحيح. وحسنه الألباني في «تحقيق المشكاة».

﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾

[مريم:٤٨-٤٩].

٢- فضل الرؤيا الصالحة التي يراها المؤمن أو تُرى له، فقد كانت الرؤيا الصالحة بداية إشراق شمس النبوة، فما زال النور يتسع حتى أشرقت شمس النبوة.

٣- فضل أمنا خديجة رضي الله عنها وكيف أنها مثال للزوجة الصالحة التي تعين زوجها على العبادة والطاعة، وكيف تستقبل الزوجة زوجها إذا عاد مهمومًا، وكيف تسعى لتفريج همه وتنفيس كربه، فخففت عنه أولًا بأن من اتصف بالصفات الفاضلة لا يمكن أن يخزيه الله بل لابد أن يرفعه وأن يُكرمه[1]، ثم لم تقتصر رضي الله عنها على ذلك حتى ذهبت به إلى ورقة بن نوفل فبشره بالنبوة، وكيف لا تكون خديجة رضي الله عنها كذلك وقد اصطفاها الله عَزَّ وَجَلّ زوجة لخاتم أنبيائه وإمام رسله في الدنيا والآخرة.

وقد ورد في فضلها رضي الله عنها أن جبريل قال للنبي صلى الله عليه وسلم: «هذه خديجة أقرئها السلام من ربها، وأمره أن يبشرها ببيت في الجنة من قصبٍ لا صخب فيه ولا نَصَبَ»[2].

---

(١) قال ابن القيم رحمه الله: استدلت بما فيه من الصفات الفاضلة، والأخلاق والشيم، على أن من كان كذلك لا يخزي أبدًا، فعلمت بكمال عقلها وفطرتها أن الأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة والشيم الشريفة تناسب أشكالها من كرامة الله وتأييده وإحسانه، ولا تناسب الخزي والخذلان، وإنما يناسبه أضدادها فمن ركبه الله على أحسن الصفات وأحسن الأخلاق والأعمال إنما يليق به كرامته وإتمام نعمته عليه، ومن ركبه على أقبح الصفات وأسوأ الأخلاق والأعمال إنما يليق بها يناسبها، وبهذا العقل والصديقية استحقت أن يرسل إليها ربها السلام منه مع رسوليه جبريل ومحمد صلى الله عليه وسلم «زاد المعاد» (١٣/ ١٩) ط. الرسالة.

(٢) رواه البخاري (٧/ ١٦٦) مناقب الأنصار، ومسلم (١٥/ ١٩٩) الفضائل. **والقصب**: هو قصب اللؤلؤ المجوف. **والصخب**: الصوت المختلط المرتفع.

٤- وفي الحديث كذلك فضل ورقة بن نوفل، وقد رآه النبي ﷺ بعد مماته في هيئة حسنة [(١)] وقال ﷺ: **«لا تسبوا ورقة فإني رأيت له جنة أو جنتين»**[(٢)].

٥- قال الحافظ: وفي هذه القصة من الفوائد استحباب تأنيس من نزل به أمر بذكر تيسيره عليه وتهوينه لديه، وأن من نزل به أمر استحب له أن يطلع عليه من يثق بنصحه وصحةَ رأيه.

٦- وفي حديث بيان سنة من سنن الأمم مع من يدعوهم إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، وهي التكذيب والإخراج كما قال تعالى عن قوم لوط: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦].

وكما قال قوم شعيب: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [إبراهيم: ١٣].

٧- قوله «وفتر الوحي»:

قال صفي الرحمن المباركفوري: أما مدة فترة الوحي فروى ابن سعد عن ابن عباس ما يفيد أنها كانت أيامًا، وهذا الذي يترجح بل يتعين بعد إدارة النظر في جميع الجوانب،

---

(١) قال الألباني: جاء من طريقين حسنهما الحافظ ابن كثير في «البداية» أخرج أحدهما أحمد من حديث عائشة والآخر أبو يعلى من حديث جابر، فلا أقل من كون الحديث حسنًا بمجموع الطريقين، «فقه السيرة» هامش[٢٠١].

(٢) أخرجه البزار والحاكم (٢/ ٩٠٤)وابن عساكر من حديث عائشة وقول الحاكم: :صحيح على شرط الشيخين» ووافقه الذهبي والألباني وقال ابن كثير: «وإسناده جيد»، «فقه السيرة»، هامش (١٠٢). وقال الحافظ ابن كثير: قوله: ثم لم ينشب ورقة أن توفي أي توفي بعد هذه القصة بقليل، -رحمه الله ورضى عنه-؛ فإن مثل هذه الذي صدر عنه تصديق بما وجد وإيمان بما حصل من الوحي، ونية صالحة للمستقبل «البداية والنهاية» (٣/ ٩) دار الفكر.

وأما ما اشتهر من أنها دامت طيلة ثلاث سنين أو سنتين ونصف فلا يصح بحال، وليس هذا موضع التفصيل في رده، وقد بقي رسول الله ﷺ في أيام الفترة كثيبًا محزونًا تعتريه الحيرة. والدهشة(١).

قال الحافظ: وفتور الوحي عبارة عن تأخره مدة من الزمان، وكان ذلك ليذهب ما كان ﷺ وجده من الروع، وليحصل له التشوق إلى العودة(٢).

وعن جابر بن عبد الله الأنصاري قال وهو يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه: «بينما أنا أمشي، إذ سمعت صوتًا من السماء فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرُعبتُ منه، فرجعت فقلت: زملوني. فأنزل الله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ [المدثر :١-٥] فحمي الوحي وتتابع»(٣).

قال الأستاذ عبد الوهاب حمودة: ليس بعجيب أن يزداد شوق الرسول ﷺ إلى مناجاة ربه بعد أن تذوقها واستضاءت روحه ببصيص الأنوار القدسية وتملَّي بها، فإن «من ذاق عَرَفَ ومن حرم انحرف».

---

(١) «الرحيق المختوم» (٧٩، ٨٠) ط.مكتبة الصحابة بجدة.

(٢) «فتح الباري» (١/ ٣٦).

(٣) رواه البخاري (١/ ٣٧) بدء الوحي، ذكر ابن اسحاق أن سورة الضحى نزلت بعد هذه الفترة من الوحي وهو ضعيف. قال في سبيل الهدى والرشاد: ما ذكره ابن إسحاق من سبب نزول سورة الضحى رواه الطبراني من طريق العوفي وهو ضعيف عن ابن عباس، ومن طريق إسماعيل مولي آل الزبير ذكره سليمان التيمي في السيرة التي جمعها. قال الحافظ: وكل هذه الروايات لا تثبت بحال، ويخالفها ما رواه الشيخان في سبب نزولها عن جندب بن سفيان البجلي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ اشتكى فلم يقم ليلتين أو ثلاثًا فجاءت امرأة فقالت: يا محمد، إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك لم يقربك منذ ليلتين أو ثلاث فأنزل الله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ إلى آخر السورة، رواه البخاري ومسلم.

قال الحافظ رحمه الله: والحق أن الفترة التي في سبب نزول سورة الضحى غير الفترة المذكورة في ابتداء الوحي، فإنها دامت أيامًا، وهذ لم تكن إلا ليلتين أو ثلاثًا، فاختلطا على بعض الرواة وتحقيق الأمر سبيل الهدى والرشاد (١/ ٣٦٧).

وإن لله من وراء تلك الفترة وذلك الاحتباس سر المربي القادر، والمؤدب الحكيم العليم بالنفوس وبواطنها، الخبير بالقلوب وتقلباتها، فإنه لما حصلت للرسول – صلوات الله عليه – روعة عند نزول الملك عليه أولًا، وأخذته من الرجفة ما أخذته وظن نفسه هالكًا، فمن الحكمة الإلهية أن يترك بعد الدرس الأول حتى يهدأ روعه ويطمئن فؤاده، وينسى ذلك الرعب ويتبدد عنه ذلك الخوف، فيتذكر لذة ذلك اللقاء وتتذوق روحه نشوة تلك المقابلة، فيقوي قلبه، ويثبت فؤاده ويتهيأ لقبول الرسالة، ويستعد لتلقي القول ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر:١٢].

ثم أراد الله أن يمنحه ما كان في شوق إليه، وأن يؤتيه ما كانت تتوق نفسه إليه من ذلك الأنس الرحماني والكشف الإلهي، والوحي الرباني، فكان لصدره فرجًا من ذلك الضيق ولنفسه فرجًا من تلك الساعة الحرجة، فحمى الوحي وتتابع[1].

فترة الإسرار بالدعوة المباركة

ابتدأت هذه الفترة المباركة من نزول قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ① قُمْ فَأَنذِرْ ② وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ [المدثر:١-٣]، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر:٩٤]، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء:٢١٤-٢١٦].

وأكد العلماء على أن مدة هذه الفترة كانت ثلاث سنوات، فقد اجتهد النبي ﷺ في هذه الفترة في دعوة من يغلب على ظنه أنه سيدخل في هذا الدين، وسوف يكتم أمره، وهذا من باب السياسة الشرعية والنظر المصلحي للدعوة، فيجب الإسرار بالدعوة إذا كان الجهر يضر بها، فدعا النبي ﷺ زوجته خديجة، وكانت أول من أسلم من النساء، ودعا صديقه الذي هو موضع ثقته وأمين سره ﴿ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾ [التوبة:٤٠]، أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فلم يتردد، وكان أول داعية

(١) «ساعات حرجة في حياة الرسول» باختصار ص(١٧، ١٨).

في الإسلام، وكان ببركة إسلامه ودعوته ثلة مباركة دخلت في الدين، وكانت من السابقين الأولين وكان لها في الإسلام أعظم بذل وبلاء، فرضي الله عنهم أجمعين، منهم عثمان بن عفان رضي الله عنه ذو النورين، والزبير بن العوام وهو حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمته صفية بنت عبد المطلب، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص خال المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وطلحة بن عبيد الله، وكل هؤلاء الذين دخلوا الإسلام على يد أبي بكر من العشرة المبشرين رضي الله عنهم أجمعين.

وكان أول من أسلم من الغلمان علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وكان ابن ثماني سنين، وقيل: أكثر من ذلك، وكان من سابق سعادته أنه كان في كفالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وكان أول من أسلم من الموالي زيد بن حارثة حب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان غلامًا لخديجة فوهبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم لما تزوجها.

ثم دخل بعد هذه الثلة الفاضلة التي سبقت لها السعادة وسبقت إلى الإيمان والعبادة، ثلة أخرى كريمة فاضلة منهم أبو عبيدة بن الجراح أمين هذه الأمة، وسعيد بن زيد من العشرة المبشرين، وخباب بن الأرت، وعبد الله بن مسعود، وأسماء وعائشة، وقد أسلمت عائشة رضي الله عنها وهي طفلة صغيرة، أما أسماء فكانت متزوجة بالزبير بن العوام.

وتوالى إسلام الأفاضل من قريش، فأسلم جعفر بن أبي طالب، وامرأته أسماء بنت عميس، والأرقم بن أبي الأرقم، وعثمان بن مظعون، وعمار بن ياسر، وصهيب بن سنان الرومي رضي الله عنهم . ولم تكن الدعوة في هذه الفترة علنية تقام في الأندية العامة والمجالس والمحافل، إنما تقوم على الاصطفاء الشخصي وتقدير الداعية لطبيعة المدعو.

قال الأستاذ منير الغضبان: لم نسمع في هذه المرحلة عن أي صدام وقع بين هذا المجتمع الإسلامي الناشئ وبين المجتمع الجاهلي، فأفكاره غير معلنة إلا لمن يُرجى انضمامه لهذا التجمع الإسلامي القائم، وليست الدعوة المعلنة هدفًا قائمًا فيها، بل لا يتدخل المسلمون بأي شأن من شئون غيرهم في نقد أو مواجهة أو مخالفة ظاهرة، والأصل

أن لا تظهر المخالفة في شيء إلا في حالة اضطرارية قاهرة، فلابد من المحافظة على السرية التامة للتنظيم والفكرة[(١)]. اهـ.

وقال المباركفوري: مرت ثلاث سنين والدعوة لم تزل سرية وفردية، وخلال هذه الفترة تكونت جماعة من المؤمنين، تقوم على الأخوة والتعاون وتبليغ الرسالة وتمكينها من مقامها، ثم تنزل الوحي يكلف رسول الله ﷺ بمعالنته قومه ومجابهة باطلهم ومهاجمة أصنامهم[(٢)]. اهـ.

الفوائد والآثار الإيمانية:

١- قال محمد البوطي: ومن هنا تدرك أن أسلوب دعوته عليه الصلاة والسلام في هذه الفترة كان من قبيل السياسة الشرعية بوصف كونه إمامًا، وليس من أعماله التبليغية عن الله تعالى بوصف كونه نبيًا.

وبناء على ذلك فإنه يجوز لأصحاب الدعوة الإسلامية في كل عصر أن يستعملوا المرونة في كيفية الدعوة من حيث التكتم والجهر أو اللين والقوة حسبما يقتضيه الظرف وحال العصر الذي يعيشون فيه، وهي مرونة حددتها الشريعة الإسلامية اعتمادًا على واقع سيرته ﷺ ضمن الأشكال أو المراحل الأربعة التي سبق ذكرها[(٣)]، على

---

(١) «المنهج الحركي للسيرة النبوية» (١/ ٣٠) المنار.

(٢) «الرحيق المختوم» لصفي الرحمن المباركفوري (٩٠).

(٣) هذه المراحل الأربعة:

المرحلة الأولى: الدعوة سرًّا، واستمرت ثلاث سنوات .

المرحلة الثانية:الدعوة جهرًا وباللسان فقط، دون قتال، واستمرت إلى الهجرة.

المرحلة الثالثة: الدعوة جهرًا مع قتال المعتدين والبادئين بالقتال أو الشر، واستمرت هذه المرحلة إلى عام صلح الحديبية.

المرحلة الرابعة: جهرًا مع قتال كل من وقف في سبيل الدعوة أو امتنع عن الدخول في الإ سلام بعد فترة الدعوة والإعلان من المشركين أو الملاحدة أو الوثنيين. وكانت هذه المرحلة هي التي استقر عليها أمر الشريعة الإسلامية وحكم الجهاد في الإسلام «فقه السيرة» (٧٥) وقسم بعضهم المرحلة الثانية إلى الدعوة داخل مكة جهارًا، واستمرت إلى السنة العاشرة من الهجرة، والدعوة جهارًا خارج مكة وابتدأت من السنة العاشرة إلى الهجرة.

أن يكون النظر في كل ذلك إلى مصلحة المسلمين ومصلحة الدعوة الإسلامية.

ومن أجل هذا أجمع جمهور الفقهاء على أن المسلمين إذا كانوا من قلة العدد أو ضعف العدة بحيث يغلب على الظن أنهم سيقتلون من غير أي نكاية في أعدائهم إذا ما أجمعوا قتالهم فينبغي أن تقدم هنا مصلحة حفظ النفس؛ لأن المصلحة المقابلة وهي مصلحة حفظ الدين موهومة أو منفية الوقوع.

ويقرر العز بن عبد السلام حرمة الخوض في مثل هذا الجهاد قائلًا: فإذا لم تحصل النكا ية وجب الانهزام، لما في الثبوت من فوات النفس مع شفاء صدور الكفار وإرغام أهل الإسلام، وقد صار الثبوت هنا مفسدة محضة ليس في طيها مصلحة.

قلت: وتقديم مصلحة النفس هنا، من حيث الظاهر فقط.

أما من حيث حقيقة الأمر ومرماه البعيد فإنها في الواقع مصلحة دين، إذ المصلحة الدينية تقتضي في مثل هذا الحال أن تبقى أرواح المسلمين سليمة لكي يتقدموا ويُجاهدوا في الميادين المفتوحة الأخرى، وإلا فإن هلاكهم يعتبر إضرارًا بالدين نفسه، وفَسحًا للمجال أمام الكافرين ليقتحموا ما كان مسدودًا أمامهم من السبل.

والخلاصة أنه يجب المسالمة أو الإسرار بالدعوة إذا كان الجهر أو القتال يضر بها، ولا يجوز الإسرار في الدعوة إذا أمكن الجهر بها، وكان ذلك مفيدًا، ولا يجوز الإسرار في الدعوة إذا أمكن الجهر بها، وكان ذلك مفيدًا، ولا يجوز المسالمة مع الظالمين والمتربصين بها إذا توفرت أسباب القوة والدفاع عنها، ولا يجوز القعود عن جهاد الكافرين في عُقر دورهم إذا ما توفرت وسائل ذلك وأسبابه[1]. اهـ.

٢- أكثر الذين استجابوا لدعوة الرسول ﷺ من الضعفاء والموالى، وهم أقرب الناس إجابة لدعوة الرسل، لأنهم لا يصعب عليهم أن يكونوا تبعًا لغيرهم، أما

(١) «فقه السيرة» لمحمد سعيد رمضان البوطي (٧٦، ٧٧) الطبعة الثامنة، وكلام العز بن عبد السلام من «قواعد الأحكام في مصالح الأنام» (١/ ٩٥).

الكبراء وأهل الجاه والسلطان فيمنعهم الكبر وحُب الجاه والرفعة عن الانقياد غالبًا، كما قال تعالى في قصة موسى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧].

وقال قوم نوح عليه السلام: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ [هود: ٢٧].

وقال عزَّ وجَلَّ في قصة صالح عليه السلام: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَـٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥-٧٦].

٣- **قال محمد الغزالي:** والإيمان قوة ساحرة إذا استمكنت من شعاب القلب وتغلغلت في أعماقه، تكاد تجعل المستحيل ممكنًا.

ولقد رأينا شبابًا وشيوخًا يلتفون عند فكرة من الفكر، ويحلونها من أنفسهم محل العقائد الراسخة، ومع أنها فكرة مادية بحتة، إلا أنهم يجعلون من حياتهم وقود حركتها ويتحملون أقبح الأذى في سبيل نصرتها.

ويرون ذلك بعض الجهد الواجب لإنجاح مبادئهم ودفعها إلى الأمام فكيف إذا كان الإيمان الذي ظهر في صدر الإسلام إيمانًا بالله رب السموات والأرض، وإيمانًا بالدار الآخرة حيث ينفلت الإنسان من هذه الدنيا لتستقبله في جوار الله الحدائق الغناء والقصور الزاهرة من تحتها الأنهار الجارية والنعيم المقيم(١).اهـ.

٤- **قال الشيخ أبو بكر الجزائري:** لا دليل لمن يرى سرية الدعوة في بلاد المسلمين اليوم في سرية الرسول صلى الله عليه وسلم لها ثلاث سنوات؛ لأن الرسول وأصحابة كان لا يسمح

---

(١) «فقه السيرة» لمحمد الغزالي (١٠٠)، باختصار.

لهم أن يقولوا لا إله إلا الله، محمد رسول الله، ولا أن يؤذنوا أو يُصلوا، ولما قويت شوكتهم أمروا بالجهر بالدعوة فجهروا، ولاقوا من الأذى ما هو معروف بين المسلمين[١] اهـ.

ولكن إذا توفرت الظروف المشابهة كان التأسي كذلك برسول الله ﷺ في هذه الفترة هو السبيل عملًا بقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ **لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا** ﴾ [البقرة: ١٢].

والذين يقيسون الأمور ويضبطونها بالضوابط الشرعية هم العلماء لا الشباب الذين لم يحصلوا من العلوم الشرعية القدر الواجب، ثم يجتهدون في أمور يتعلق بها مستقبل الدعوة بل ومستقبل الأمة، وأولى بهؤلاء الشباب أن يجلسوا عند أقدام العلماء للتعلم، وأن يلتزموا أمر الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ **فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** ﴾ [الأنبياء: ٧].

فترة الجهر بالدعوة المباركة

عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿ **وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ** ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، صعد النبي ﷺ على الصفا فجعل ينادي: «**يا بني فهر، يا بني عُدي**» لبطون قريش حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولًا لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال: «**أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلًا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي**»، قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقًا، قال: «**فإني نذير لكم بين يديّ عذاب شديد**»، فقال أبو لهب: تبًا لك اليوم، ولهذا جمعتنا؟ فنزلت: ﴿ **تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ** ﴾ [المسد: ١-٢][٢].

وعن أبي هريرة قال: قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله: ﴿ **وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ** ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، قال: «**يا معشر قريش - أو كلمة نحوها - اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئًا، يا عباس بن عبد المطلب، لا أغني عنك من الله شيئًا، ويا**

(١) «هذا الحبيب محمد رسول الله ﷺ يا محب» (٩٩) مكتبة لينة.

(٢) ورواه البخاري (٨/ ٣٦٠) التفسير، ومسلم (٣/ ٨٣) الإيمان.

صفية عمة رسول الله ﷺ **لا أغني عنك من الله شيئًا، ويا فاطمة بنت محمد** ﷺ **سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئًا**»(١).

قال الحافظ قوله: «أرأيتكم لو أخبرتكم إلخ» أراد بذلك تقريرهم بأنهم يعلمون صدقه إذا أخبر عن الأمر الغائب».

وقوله: «**فإني نذير لكم**» أي منذر، ووقع في حديث قبيصة بن محارب وزهير ابن عمرو عند مسلم وأحمد: «فجعل ينادي: **إنما أنا نذير، وإنما مثلي ومثلكم كرجلٍ رأى العدو** فجعل يهتف:**يا صباحاه**»، يعني ينذر قومه.

وقوله في حديث أبي هريرة: «**اشتروا أنفسكم من الله**» أي باعتبار تخليصها من النار كأنه قال: أسلموا تسلموا من العذاب فكان ذلك كالشراء، كأنهم جعلوا الطاعة ثمن النجاة، وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾ [التوبة: ١١١]، فهناك المؤمن بائع باعتبار تحصيل الثواب والثمن الجنة، وفيه: إشارة إلى أن النفوس كلها ملك لله تعالى، وأن من أطاعه حق طاعته في امتثال أوامره، واجتناب نواهيه وفَّى ما عليه من الثمن وبالله التوفيق(٢).

قال صفي الرحمن المباركفوري: ولم يزل هذا الصوت يرتج دويه في أرجاء مكة حتى نزل قوله تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤]، فقام رسول الله ﷺ يعكر على خرافات الشرك وترهاته، ويذكر حقائق الأصنام وما لها من قيمة في الحقيقة ويضرب بعجزها الأمثال، ويبين بالبينات أن من عبدها وجعلها وسيلة بينه وبين الله فهو في ضلال مبين.

انفجرت مكة بمشاعر الغضب، وماجت بالغرابة والاستنكار، حين سمعت صوتًا يجهر بتضليل المشركين وعُباد الأصنام كأنه صاعقة قصفت السحاب فرعدت وبرقت

---

(١) رواه البخاري (٨/ ٣٦٠) التفسير، ومسلم (٣/ ٨٣) الإيمان.

(٢) باختصار من «الفتح» (٨/ ٣٦١، ٣٦٢) التفسير.

وزلزلت الجو الهادئ، وقامت قريش تستعد لحسم هذه الثورة التي اندلعت بغتةً، ويخشى أن تأتي على تقاليدها وموروثاتها(١).

وكان عدد من آمن بالدعوة المباركة نيفًا وأربعين بين رجل وامرأة، وأسلم في هذه الفترة المباركة أسد الله وأسد رسول الله ﷺ حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ وأخوه من الرضاعة، وكذلك الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

قال الجزائري حَفِظَهُ اللهُ : وبإسلام عمر وحمزة رضي الله عنهما دخلت الدعوة في طور جديد، فجاهر الرسول ﷺ وصدع بما يأمره به ربه، فأقضَّ هذا الموقف الجديد مضجع المشركين وأفزعهم وزادهم هولًا وفزعًا تزايد عدد المسلمين وإعلانهم عن إسلامهم وعدم مبالاتهم بعداء المشركين لهم، الأمر الذي جعل رجالات قريش يساومون رسول الله ﷺ (٢).

وكان من السمات البارزة لهذه المرحلة:

السمة الأولى: كثرة الإيذاء واشتداد البلاء على النبي ﷺ وأصحابه الكرام رضي الله عنهم .

السمة الثانية: مواجهة الدعوة بشتى الأساليب لصد الناس عنها، وتنفيرهم منها.

السمة الثالثة: كثرة العروض على النبي ﷺ من أجل المساومة على الحق الذي يدعو إليه وعدم قبول النبي ﷺ لشيء من التنازلات.

السمة الرابعة: اهتمام النبي ﷺ بتربية العقيدة الصحيحة، وصقل قلوب الصحابة بالقيام والصيام وتلاوة القرآن.

السمة الخامسة: تربية النبي ﷺ للصحابة على الصبر على الإيذاء، وعدم الانتصار للنفس والإعراض عن الجاهلين.

---

(١) «الرحيق المختوم» (٩٣، ٩٤).

(٢) «هذا الحبيب رسول الله ﷺ يا محب» [٩٨].ط.مكتبة لينة.

السمة السادسة: تبشير الصحابة رضي الله عنهم بالنصر والتمكين وهم يعانون أشد ألوان العذاب.

ولما كانت هذه المرحلة بعينها هي المرحلة التي تعيشها الدعوة في هذه الأزمان في جل بلاد الأرض، نسأل الله أن يعيننا على إلقاء الضوء عليها وأخذ العبرة منها، لعل شباب الصحوة يتضح لهم الطريق إلى العِزة والتمكين، ويتبعون هدي سيد الأولين والآخرين فقد قال إمام دار الهجرة رحمه الله: لا يصلح أمر آخر هذه الأمة إلا بما صلح عليه أمر أولها.وسنن الله عَزَّ وَجَلَّ في عباده واحدة لا تتغير ولا تتبدل: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾ [الأحزاب:٦٢]، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ [فاطر:٤٣].

فإن الجميع يتساءل: كيف السبيل إلى عز الإسلام والمسلمين؟

ومتى يصل المسلمون المخلصون إلى الأمل المنشود والوعد الموعود وهو سعادة الناس في ظل التحاكم إلى شريعة ربهم عَزَّ وَجَلَّ، وتخلصهم من أحكام الكفر وشرائعه، واختلفت الأجوبة على هذا السؤال بلسان الحال أو المقال، **فمنهم**: من يزعم أنه لابد من الوصول إلى الجاه والسلطان ودخول البرلمان، **ومنهم**: من يزعم أن السبيل هو جمع المال والتحكم في الاقتصاد، **ومنهم**: من يزعم أن الوصول إلى هذا الهدف بمعركة خاطفة سريعة. وفي عَشية أو ضحاها يتم التوصل إلى الهدف المنشود. **ومنهم**: من لا يهدف لذلك أصلًا، بل يظن أن الدعوة الإسلامية هي دعوة إصلاحية لإصلاح أخلاق الناس ومعاملاتهم، وغاية أمرهم أن يقيم الناس الصلاة ويؤدوا الزكاة ويصوموا رمضان ويحجوا البيت، وليس عندهم استعداد أصلًا للتضحية حتى ترتفع راية لا إله إلا الله، وحتى ينزاح الشر والشرك، وتنعم البشرية مرة ثانية بحكم ربها عَزَّ وَجَلَّ.

واختصارًا وقبل أن نفصل سمات مرحلة جهر النبي صلى الله عليه وسلم بالدعوة وتسفيه أحلام المشركين وسب آلهتهم حتى يظهر النهج النبوي الواضح، ونقف على

المحجة البيضاء التى تركنا عليها رسول الله ﷺ نقول: إن طريق البرلمان ليس حلًا إسلاميًا صحيحًا، لأن ذلك لا يكون إلا بكثير من التنازلات والمهاترات السياسية والمداهنة في أعظم قضية في هذا الدين وهي قضية التوحيد التي هي لُبُّ الدين الذي أرسل به رسول الله ﷺ بل وسائر الأنبياء والمرسلين. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥].

فليس طريق البرلمان طريقًا إلى عز الإسلام والمسلمين، فكيف السبيل إذن؟ هل هو جمع الأموال وتأسيس الشركات الإسلامية لجمع أسباب العزة؟ ولعل أصحاب هذا الفكر غرّهم سيطرة اليهود _ عليهم لعائن الله - على سياسة بعض الدول الكبري نتيجة لتحكمهم في اقتصاديات تلك الدول، فظنوا أن المسلمين سيصيرون أعزة بجمع المال والتحكم في الاقتصاد، وغفلوا عن قول النبي ﷺ: «**اعلم أن شرف المؤمن قيامه بالليل، وعِزُّه استغناؤه عن الناس**»(١).

وقوله ﷺ: «**فوالله ما الفقر أخشي عليكم، ولكن أخشى أن تفتح الدنيا عليكم كما فتحت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم**»(٢).

وغفلوا كذلك عن قول عمر رضي الله عنه: «كنا أذل الناس، فأعزنا الله برسوله، فمهما طلبنا العزة بغيره أذلنا الله عَزَّ وَجَلَّ».

فهذه الأمة لا يمكن أن تكون عزيزة إلا باتباع دينها وتعظيم أمر ربها، فما السبيل إذن؟ هل هو سبيل الانقلابات العسكرية والعمليات الانتحارية، وفي سويعات معدودة

---

(١) أخرجه العقيلي في «الضعفاء» (ص:١٢٧) وأعله بأن داود حدث عن الأوزاعي وغيره بالبواطيل وأورده ابن الجوزي في «الموضوعات» من رواية العقيلي .قال الألباني: لكن للحديث شواهد مرفوعة يرتقى الحديث بها إلى درجة الحسن - إن شاء الله تعالى - «الصحيحة» رقم [١٩٠٣].

(٢) رواه البخاري (١١/ ٢٤٨) الرقاق، والترمذي (٩/ ٢٨٦،٢٨٧) صفة القيامة.

يتم التمكين للإسلام والمسلمين، ومن تدبر دعوة النبي ﷺ، بل وجميع الأنبياء قبله يعلم علمًا يقينيًا أن هذا الطريق ليس طريق الأنبياء، وأن هذا السبيل مخالف للسنن الشرعية والكونية، والله عَزَّ وَجَلّ يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد :١١]، فلابد من انتشار الدعوة وإصلاح قلوب الناس وجوارحهم بالتوحيد وطاعة الشرع المجيد، هذا رسول الله ﷺ بقي في مكة ثلاثة عشر عامًا يدعو للتوحيد، ويربي أصحابه بقيام الليل وسائر العبادات، ويتحمل ويتحملون معه أشد ألوان التعذيب والاستهزاء، وسوف نسوق بإذن الله شيئًا من ذلك في موضعه حتى يتبين لإخواننا كيف تبدأ الدعوة إلى الله عَزَّ وَجَلّ.

لما بايع الأنصار بيعة العقبة الثانية قالوا: لو شئت لملنا على أهل الوادي فقتلناهم دفعة واحدة فقال ﷺ : «**إني لم أومر بذلك**». ونزل عليه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [النساء :٧٧].

هل أصحاب هذا الفكر أغير على الدين من سيد الأولين والآخرين؟ كيف كان النبي ﷺ بمكة عندما جهر بالدعوة؟ وكيف كان حال الصحابة الكرام؟ كيف ربي النبي ﷺ أصحابه؟ كيف مهد النبي ﷺ لإقامة الدولة المسلمة بالمدينة؟

هذا ما ينبغي أن يتعلمه الشباب المسلم المخلص، حتى لا يُضيع سعيهم ويضمحل أمرهم، دون مصلحة شرعية، وهذا ما نرجو أن يظهر جَليًا بإذن الله تعالى وتوفيقه في دراسة هذا الفصل من السيرة النبوية، ولنشرع في السمات التي تميزت بها هذه المرحلة والله المستعان.

السمة الأولى: كثرة الإيذاء واشتداد البلاء على النبي ﷺ وأصحابه الكرام:

عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يصلي عند البيت وأبو جهل وأصحاب له جلوس إذ قال بعضهم لبعض: أيكم يجيء بسلى جزور بني فلان فيضعه على ظهر محمد إذا سجد، فانبعث أشقى القوم فجاء به، فنظر حتى إذا سجد النبي ﷺ وضعه على ظهره بين كتفيه وأنا أنظر لا أغني شيئًا لو كانت لي منعةٌ. قال: فجعلوا يضحكون ويحيل بعضهم على بعض، ورسول الله ﷺ ساجد لا يرفع رأسه، حتى جاءته فاطمة فطرحت على ظهره، فرفع رأسه ثم قال: «**اللهم عليك بقريش**» ثلاث مراتٍ، فشقّ عليهم إذا دعا عليهم. قال: وكانوا يرون أن الدعوة في ذلك البلد مستجابة ثم سَمَّى «اللهم عليك بأبي جهل، وعليك بعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط» وعد السابع فلم نحفظه، قال: «فوالذي نفسي بيده لقد رأيت الذين عد رسول الله ﷺ صرعى في القليب، قليب بدر»[(١)].

وروى مسلم عن أبي هريرة قال: قال أبو جهل: يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ فقيل: نعم! فقال: واللات والعُزى لئن رأيته لأطأن على رقبته ولأعفرن وجهه فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي، زعم ليطأ رقبته، فما فجأهم إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه، فقالوا: ما لك يا أبا الحكم؟ قال: إن بيني وبينه لخندقًا من نار وهؤلاء أجنحة. فقال رسول الله ﷺ: «**لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوًا عضوًا**»[(٢)].

---

(١) رواه البخاري (١/ ٤١٦) الوضوء، ومسلم (١٢/ ١٥١، ١٥٢) الجهاد والمسير.

والسلي: هي الجلدة التي يكون فيها الولد يقال لها ذلك من البهائم، وأما من الآدميات فالمشيمة.

(٢) رواه مسلم (١٧/ ١٣٩) «صفة القيامة والجنة والنار».

وللحديث بقية: قال: فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ لا ندري في حديث أبي هريرة أو شيء بلغه: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾، وقال النووي: ولهذا الحديث أمثلة كثيرة في عصمته ﷺ من أبي جهل وغيره ممن أراد به ضررًا، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ وهذه الآية نزلت بعد الهجرة والله أعلم.

وعن عروة بن الزبير قال: سألت ابن عمرو بن العاص أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: بينما النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصلي في حجر الكعبة، إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فوضع ثوبه في عنقه، فخنقه خنقًا شديدًا، فأقبل أبو بكر حتى أخذه بمنكبه ودفعه عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ [غافر:٢٨][١].

وإذا كانت هذه الاعتداءات على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وله من الجلال والوقار في نفوس العامة والخاصة فكيف بالصحابة الكرام، لاسيما الضعفاء منهم، وسوف نسوق شيئًا من ذلك ليكون فيه سلوى وعزاء للدعاة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ في هذه الأزمنة الغابرة تثبت أقدامهم على الطريق، وتعطيهم القُدوة والمثل.

عن خباب بن الأرت أنه قال: أتيت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو متوسد بردة وهو في ظل الكعبة، ولقد لقينا من المشركين شدة، فقلت: يا رسول الله ألا تدعو الله لنا؟، فقعد وهو مُحْمَر وجهه فقال: «**لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد ما دون عظمه من لحمٍ أو عصبٍ ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت لا يخاف إلا الله**»[٢].

وعن عبد الله بن مسعود قال: «كان أول من أظهر إسلامه سبعة: رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وأبو بكر، وعمار، وأمه سُمية، وصُهيب، وبلال، والمقداد. فأما رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فمنعه الله بعمه أبي طالب، وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون وألبسوهم أدرع الحديد وصهروهم في الشمس فما منهم من أحدٍ إلا وقد واتاهم على ما أرادوا إلا بلالًا فإنه هانت عليه نفسه في الله، وهان على قومه فأخذوه فأعطوه الولدان فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة وهو يقول أَحَدٌ أَحَدٌ»[٣].

(١) رواه البخاري (٧/ ٣٠٢) مناقب الأنصار.
(٢) رواه البخاري (٧/ ٢٠٢) مناقب الأنصار، وأحمد (٥/ ١٠٩).
(٣) رواه ابن ماجه رقم [١٥٠] المقدمة وحسنه الألباني.

وعن قيس بن أبي حازم رضي الله عنه قال: «سمعت سعيد بن زيد بن عمرو في مسجد الكوفة يقول: والله لقد رأيتني وإن عمر لموثقي على الإسلام قبل أن يسلم عمر»(١).

وعن ابن عباس في قصة إسلام أبي ذر، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «**ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري**». قال: «والذي نفسي بيده لأصرخن بها بين ظهرانيهم، فخرج حتى أتى المسجد فنادى بأعلى صوته: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن، محمدًا رسول الله، ثم قام القوم فضربوه حتى أوجعوه، وأتى العباس فأكبَّ عليه قال: ويلكم، ألستم تعلمون أنه من غفار وأن طريق تجاركم إلى الشام؟ فأنقذه منهم، ثم عاد من الغد لمثلها فضربوه وثاروا إليه فأكبّ العباس عليه»(٢).

الفوائد والآثار الإيمانية:

١ - هذا الباب تقرير وتأكيد لقول الله تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت:١].

ولقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة:٢١٤].

ولقوله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا﴾ [آل عمران:١٨٦].

ومن الفوائد هذا الابتلاء تمحيص المؤمنين ومحق الكافرين: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال:٤٢].

---

(١) رواه البخاري (٧/ ٢١٤) مناقب الأنصار.

وقوله «**الموثقي**»: أي أن عمر رضي الله عنه ربطه بسبب إهانة له وإلزامًا بالرجوع عن الإسلام.

(٢) رواه البخاري (٧/ ٢١١) مناقب الأنصار.

وحتى يتخذ الله أولياء وشهداء، ونسأل الله تعالى شهادة في سبيلهِ مُقبلين غير مُدبرين.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ : والمقصودِ أن الله سبحانه اقتضت حكمته أنه لابد أن يمتحن النفوس ويبتليها، فيظهر بالامتحان طيبها من خبيثها، ومن يصلح لموالاته وكرامته ومن لا يصلح، وليمحص النفوس التي تصلح له ويخلصها بكير الامتحان كالذهب الذي لا يخلص ولا يصفو من غِشه إلا بالامتحان، إذ النفس في الأصل جاهلة ظالمة، وقد حصل لها من الجهل والظلم من الخبث ما يحتاج خروجه إلى السبك والتصفية، فإن خرج في هذه الدار وإلا ففي كير جهنم، فإذا هذب العبد ونقي أُذن له في دخول الجنة(١).

٢- قال الجزائري حَفِظَهُ ٱللَّهُ في النتائج والعبر: بيان صدق وعد الله تعالى لرسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾ [الحجر: ٩٥].

فقد كفاه إياهم بأن أهلكهم كلهم والرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يشاهد هلاكهم في فترة وجيزة وزمنٍ قليل(٢).

٣- قال الدكتور/ محمد البوطي: كان من الممكن أن لا يأمر الله رسوله بإنذار عشيرته وذوي قرباه خاصةً اكتفاء بعموم أمره الآخر وهو قوله: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ [الحجر: ٩٤]، إذ يدخل أفراد عشيرته وذوو قُرباه في عموم الذين سيصدع أمامهم بالدعوة والإنذار، فما الحكمة في خصوصية الأمر بإنذار العشيرة؟

فأدنى درجة في المسئولية هي مسئوليه الشخص عن نفسه، ومن أجل إعطاء هذه الدرجة حقها استمرت فترة ابتداء الوحي تلك المدة الطويلة التي رأيناها، أي ريثما يطمئن محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أنه نبي مرسل، وأن ما ينزل عليه إنما هو وحي من الله عَزَّ وَجَلَّ فيؤمن هو بنفسه أولًا ويُوطن ذاته لقبول كل ما سيتلقاه من مبادئ ونظم وأحكام.

(١) «زاد المعاد في هدى خير العباد» لابن القيم(٣/ ١٨) ط.الرسالة بتحقيق شعيب وعبد القادر الأرناؤوط.
(٢) «هذا الحبيب» [١١٩].

أما الدرجة التي تليها، فهي مسئولية المسلم عن أهله، ومن يلوذون به من ذوي قرباه، وتوجيهًا إلى القيام بحق هذه المسئولية خصص الله الأهل والأقارب بضرورة الإنذار والتبليغ بعد أن أمر بعموم التبليغ والجهر به.

وأما الدرجة الثالثة: فهي مسئولية العالم عن حيه أو بلدته ومسئولية الحاكم عن دولته وقومه وكل منهما ينوبان في ذلك مناب رسول الله ﷺ (١).

وقال الأستاذ منير الغضبان: فالشيء الطبيعي أن تكون الدعوة في المرحلة الأولي في صفوف الأقربين، وخاصة عندما تأخذ طابع المواجهة المعلنة، لأن هذه المواجهة تُعرض الداعية للخطر فلابد له من حماية، وعشيرة الداعية هم أكثر الناس استعدادًا للحماية، فلقد كان أول الخلق إسلامًا بعد رسول الله ﷺ زوجه خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، ومولاه زيد بن حارثة، وابن عمه علي بن أبي طالب الذي كان مَقيمًا عنده(٢).

٤ - **يقول الشيخ محمد الغزالي:** إن محمدًا - صلوات الله وسلامه عليه - لم يجمع أصحابه على مغنم عاجلٍ أو آجلٍ، إنه أزاح الغشاوة عن الأعين فأبصرت الحق الذي حجبت عنه دهرًا، ومسح الران عن القلوب فعرفت اليقين الذي فطرت عليه وحرمتها الجاهلية منه، إنه وصل البشر بربهم، فربطهم بنسبهم العريق وسببهم الوثيق، وكانوا -قبلًا- حيارى محسورين، إنه وازن بين الخلود والفناء، فآثروا الدار الآخرة على الدار الزائلة، وخيرهم بين أصنام حقيرة وإله عظيم فازدروا الأوثان المنحوتة، وتوجهوا للذي فطر السماوات والأرض.

حسب محمد ﷺ أنه قدم هذا الخير الجزيل، وحسب أصحابه أن ساقته العناية لهم، فإذا أُوذوا فليحتسبوا، وإذا حاربهم عبيد الرجس من الأوثان فليلزموا ما عرفوا، والحرب القائمة بين الكفر والإيمان سينجلي غبارها يومًا ما، ثم تنكشف عن شهداء وهلكى، وعن مؤمنين قائمين بأمر الله ومشركين مدحورين بإذن الله.

---

(١) فقه السيرة [٨١] باختصار.

(٢) «المنهج الحركي للسيرة النبوية» (١/ ٤١) باختصار.

﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [هود: ١٢١-١٢٣][(١)].

٥- قال الدكتور مصطفى السباعي: إن ثبات المؤمنين على عقيدتهم بعد أن ينزل بهم الأشرار والضالون أنواع العذاب والاضطهاد دليل على صدق إيمانهم، وإخلاصهم في مُعتقداتهم، وسمو نفوسهم وأرواحهم، بحيث يرون ما هم عليه من راحة الضمير واطمئنان النفس والعقل، وما يأملونه من رضا الله جلَّ شأنه، أعظم بكثير مما ينال أجسادهم من تعذيب وحرمان واضطهاد.

إن السيطرة في المؤمنين الصادقين والدُّعاة المخلصين تكون دائمًا وأبدًا لأرواحهم لا لأجسادهم، وهم يُسرعون إلى تلبية مطالب أرواحهم من حيث لا يُبالون بما تتطلبه جسومهم من راحة وشبع ولَذة، وبهذا تنتصر الدعوات، وبهذا تتحرر الجماهير من الظلمات والجهالات[(٢)].

السمة الثانية: مواجهة الدعوة بشتى الأساليب لصد الناس عنها وتنفيرهم منها:

قال صفي الرحمن المباركفوري ما ملخصه: ولما رأت قريش أن محمدًا ﷺ لا يصرفه عن دعوته هذا ولا ذاك، فكروا مرة أخرى واختاروا لقمع هذه الدعوة أساليب تتلخص فيما يأتي:

١- السخرية والتحقير والاستهزاء والتكذيب والتضحيك، قصدوا بها تخذيل المسلمين وتوهين قواهم المعنوية، فرموا النبي ﷺ بتهم هازلة، وشتائم سفيهة فكانوا ينادونه بالمجنون ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الحجر: ٦].

---

(١) فقه السيرة: [١١٢، ١١٣].

(٢) «السيرة النبوية» دروس وعبر (٤٩، ٥٠) المكتب الإسلامي.

ويصمونه بالسحر والكذب ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص:٤].

وكانوا كما قصَّ علينا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ﴾ [المطففين:٢٩-٣٣].

٢- تشويه تعاليمه وإثارة الشبهات، وبث الدعايات الكاذبة، ونشر الإيرادات الواهية حول هذه التعاليم، وحول ذاته وشخصيته، والإكثار من كلِّ ذلك بحيث لا يبقى للعامة مجال في تدبر دعوته، فكانوا يقولون عن القرآن: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان:٥]، ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ [الفرقان:٤]، وكانوا يقولون: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل:١٠٣].

وكانوا يقولون عن الرسول صلى الله عليه وسلم: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان:٧]. وفي القرآن نماذج كثيرة للردود على إيراداتهم بعد نقلها أو من غير نقلها.

٣- معارضة القرآن بأساطير الأولين وتشغيل الناس بها عنه، فقد ذكروا أن النضر ابن الحارث قال مرة لقريش: يا معشر قريش! والله لقد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد، قد كان محمد فيكم غُلامًا حَدثًا أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثًا، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب، وجاءكم بما جاءكم به قلتم: كاهن!! لا والله ما هو بكاهن، قد رأينا الكهنة وتخالجهم وسمعنا سجعهم. وقلتم: شاعر، لا والله ما هو بشاعر قد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها هزجه ورجزه، وقلتم: مجنون!! لا والله ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون فما هو بخنقه ولا وسوسته، ولا تخليطه، يا معشر قريش فانظروا في شأنكم فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم.

ثم ذهب النضر إلى الحيرة وتعلم بها أحاديث ملوك فارس، وأحاديث رستم وأسفنديار، فكان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلسًا للتذكير بالله والتحذير من نقمته خلفه النضر ويقول: والله ما محمد بأحسن حديثًا مني، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم وأسفنديار، ثم يقول: بماذا محمد أحسن حديثًا مني؟(١).

٤- مساومات حاولوا بها أن يلتقى الإسلام والجاهلية في منتصف الطريق بأن يترك المشركون بعض ما هم عليه، ويترك النبي ﷺ بعض ما هو عليه ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩].

وروى ابن إسحاق بسنده قال: اعترض رسول الله ﷺ وهو يطوف بالكعبة الأسود بن عبد المطلب بن أسد بن عبد العزى والوليد بن المغيرة وأمية بن خلف والعاص بن وائل السهمي، وكانوا ذوي أسنان في قومهم، فقالوا: يا محمد هلم فلنعبد ما تعبد وتعبد ما نعبد فنشترك نحن وأنت في الأمر، فإن كان الذي تعبد خيرًا مما نعبد كنا قد أخذنا بحظنا منه، وإن كان ما نعبد خيرًا مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون: ١-٢] السورة كلها(٢)، وحسم الله مفاوضتهم المضحكة بهذه المفاضلة الجازمة.

٥- ومن هذه الأساليب التعذيب والإيذاء وقد تقدم شيئًا من ذلك في الفصل السابق، **ومنها**: المقاطعة والحصار الاقتصادي وسوف يأتي بيانه - إن شاء الله تعالى -، **ومنها**: كثرة العروض على النبي ﷺ للتنازل عن قضية التوحيد، وسيأتي ذكرها كذلك - إن شاء الله -.

٦- ومن هذه الأساليب كثرة مساومتهم لعمه أبي طالب من أجل أن يتخلى عن حمايته والدفاع عنه فامتنع من ذلك، ودعا أقاربه إلى نصرته، فأجابه بنو هاشم وبنو المطلب غير أبي لهب، وقال في ذلك الأبيات المشهورة:

(١) من «سيرة ابن هشام» ومعها «الروض الأنف» (٢/ ١٠٧، ١٠٨).
(٢) الرحيق المختوم باختصار (٩٧-٩٩).

وَاللهِ لَنْ يَصلُوا إِليكَ بِجَمعِهم حَتى أُوسَّدَ فِي التُّرابِ دَفينَا
فَاصدعْ بِأمرِكَ ما عَليكَ غَضاضةٌ وأَبشِرْ وقرّ بِذاكَ منكَ عُيُونَا
وَدعَوْتَنى وَعَرفْتُ أَنَّكَ نَاصِحِي وَلَقَدْ صَدَقْتَ وَكُنتَ ثَم أَمينَا
وَعَرَضْتَ دِينًا قَدْ عَرفتُ بأَنَّهُ مِنْ خَيرِ أَديانِ البرِّيَةِ دِيْنَاَ
لَولَا المَلاَمَةَ أَوَ حَذار مَسَّبةٍ لَوَجَدتَني سَمِحًا بِذاك مُبينًا(١).

٧- ومن هذه الأساليب تحدِّيهم للنبي ﷺ بسؤال الآيات:

قال الشيخ محمد الخضري: ولما رأى المشركون أن هذه المطالب التي يعرضونها لا تقُبل منهم، أرادوا أن يدخلوا من باب آخر، وهو تعجيز الرسول ﷺ بطلب الآيات، فاجتمعوا وقالوا: يا محمد إن كنت صادقًا فأرِنا آية نطلبها منك، وهي أن تشق لنا القمر مزقتين، فأعطاه الله هذه المعجزة وانشق القمر فرقتين فقال رسول الله ﷺ : «**اشهدوا**»(٢).

وهذه القصة رواها عبد الله بن مسعود وهو من السابقين الأولين رويت عنه من طرق كثيرة ورواها عبد الله بن عباس وغيره، ورواها عنهم جمع غزير حتى صار الحديث كالمتواتر، وقد ذكرها القرآن الكريم في قوله تعالى أول سورة القمر: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر:١]، فحينها رأى المعاندون هذه الآية الكبرى. قال بعضهم: لقد سحركم ابن أبي كبشة فأنزل الله فيهم ﴿وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر:٢]

---

(١) نقلًا عن «مختصر سيرة الرسول» ﷺ للإمام عبد الله محمد بن عبد الوهاب [٦٩] مكتبة الرياض الحديثة.

(٢) «نور اليقين في سيرة المرسلين» [٦٩، ٧١] بتصرف ، ط.الأزهر.

ثم سألوا رسول الله ﷺ بعد ذلك آيات لا يقصدون بذلك إلا التعنت والعناد، فمنها أن قالوا، كما في سورة الإسراء: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ﴾ [الإسراء: ٩٠، ٩٣]، ولم يجبهم الله عزَّ وجلَّ إلا بقوله: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء:٩٣] لأن الله تعالى علم ما تكنه جوانحهم من التَّعصب والعِناد فلا يؤمنون مهما جاءهم من البينات، كما قال جلَّ ذكره في سورة الأنعام: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام :١٠٩]، وكيف يرجى الخير ممن قالوا، كما في سورة الأنفال: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال :٣٢]، ولم يقولوا: إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه[1].

الفوائد والآثار الإيمانية:

١ – لا شك أن الصراع بين الحق والباطل قصته واحدة وإن اختلفت صور هذا الصراع، ومن أساليب أهل الباطل التشويه للدعوة الصحيحة وللدُّعاة إليها، وإن كان هذا التشويه في الماضي هو رمي أصحابها بالجنون وبالسحر وغير ذلك، فإن أهل الباطل الآن يرمون أهل الحق بالتطرف والتعصب، وهم يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجًا، ويحاولون أن يقنعوا أنفسهم وغيرهم أنهم لا يحاربون الإسلام، ولكن يحاربون التطرف في فهمه، ويحسبون بذلك أنهم يُحسنون صنعًا، ولأنهم تركوا أكثر شرائع الإسلام واقتصروا على النذر اليسير منه كان من يلتزم بجملة شرائع الإسلام في نظرهم من المتطرفين الشاذين، وفي الواقع هم المتطرفون الشاذون لأنهم أخذوا طرفًا منه وأعرضوا عن بقيته وشذُّوا عن جماعة المسلمين التي تحافظ على الإسلام كله، وتدعو للإسلام كله ﴿وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ﴾ [البروج :٢٠].

(١) «نور اليقين في سيرة سيد المرسلين» (٦٩، ٧١) بتصرف، ط.الأزهر.

٢- ومن الوسائل الحديثة كذلك في مواجهة الصحوة الإسلامية إغراق الناس في الشهوات، وذلك بالإعلام الماجن الذي يشيع الفواحش وينشر الرذيلة، على أمل من القائمين على الحكم أن ينحرف أكثر الشباب في تيار الإِباحية والفجور، فلا ينفعهم نصح الناصحين، ووعظ الواعظين، وكما قال بعض أئمة الكفر: كأس وغانية يفعلان في أمة الشرق أكثر مما يفعله ألف مدفع.

ولما سألوا الشيوعي الكافر كارل ماركس: ما هو البديل عن عقيدة الألوهية؟ قال: البديل هو المسرح، أشغلوهم عن عقيدة الألوهية بالمسرح.

وما أدراك ما المسرح في دعوته السافرة إلى محاربة الأخلاق والأديان.

٣- ومن هذه الوسائل كثرة الاعتقالات والتهديد بالسجن والتعذيب لمن يحمل راية الدعوة الإسلامية، وكم من شباب اشتد عوده في السجن فخرج منه وهو أصلب عودًا وأقدر على البذل والجهاد في سبيل الله عَزَّ وَجَلَّ، وهلاك الشباب ليس في السجون وإنما الهلاك في الدنيا وشهواتها والحرص عليها، قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**ما الفَقرَ أَخشَى عَليكُم، وَلكنْ أَخشَى أَنْ تُفتحِ الدُّنيَا عَليكُمْ كَما فُتحتْ عَلى مَنْ كَانَ قَبلْكُم فَتَنافسُوها كَما تنافسُوها فَتهلكُكم كَما أَهلكَتْهمْ**»[1].

٤ - **قال الدكتور مصطفى السباعي**: إن المبطلين لا يستسلمون أمام أهل الحق بسهولة ويسر، فهم كلما أخفقت لهم وسيلة من وسائل المقاومة والقضاء على دعوة الحق، ابتكروا وسائل أخرى، وهكذا حتى ينتصر الحق انتصاره النهائي، ويلفظ الباطل أنفاسه الأخيرة[2].

٥- **قال الشيخ محمد الغزالي**: إن الطحالب العائمة لا تقف السفن الماخرة، ولئن نقم الجاهليون على المسلمين مروقهم من بين قومهمَ حتى ليُّسمونهم الصباه فإن

(١) تقدم تخريجه.

(٢) «السيرة النبوية» دروس وعبر [٥١] المكتب الإسلامي.

المسلمين لأشد نقمة عليهم، أن سَفهوا أنفسهم، وحقّروا عقولهم، وتشبثوا بخرافات ما أنزل الله بها من سلطان.

إن الدعوة التي بدأ بها محمد ﷺ من بطن مكة لم تكن لبناء وطن صغير، بل كانت إنشاءً جديدًا لأجيال وأمم تتوارث الحق وتندفع به في رحاب الأرض، إلى أن تنتهي من فوق ظهر الأرض قصة الحياة والأحياء. فماذا تصنع خصومة فرد أو قبيلة لرسالة هذا شأنها في حاضرها ومستقبلها؟ ومن أولئك الخصوم؟

- متعصبون تحجرت عقولهم تزين لهم سطوتهم البطش بمن يخالفهم ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ [الحج: ٧٢].

- أم مترفون سرَّتهم ثروتهم يحبون الباطل لأنه على أرائك وثيرة ويكرهون الحق لأنه عاطل عن الحلي والمتاع ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣].

- أم متعنتون يحسبون هداية الرحمن عبث صبية، أو أزياء غانية، فهم يقولون: دع هذا وهات هذا، ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس: ١٥].

- أو مهُرجون يتواصون بينهم بافتعال ضجة عالية وصياح منكر، عندما تقرأ الآيات حتى لا تسمع فتفهم، فتترك أثرًا في عقل نقي وقلب طيب ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦][١].

(١) «فقه السيرة» [١٠٧، ١٠٨] باختصار.

السمة الثالثة: كثرة العروض على النبي ﷺ من أجل المساومة على الحق الذي يدعو إليه وعدم استجابة النبي ﷺ لشيء من التنازلات:

لما أكثر المشركون من التعذيب والاستهزاء والسخرية بالمسلمين رجاء أن يصدهم ذلك عن دينهم، وكان المسلمون لا يزدادون بذلك إلا إيمانًا ويقينًا، ولم يُفلحوا في ذلك، لجأوا إلى أسلوب آخر، بلغة العصر أكثر دبلوماسية، فأرادوا أن يعرضوا على النبي ﷺ عروضًا لعله يرجع عما هو عليه، أو يتنازل عن بعض الحق الذي يدعو إليه، فمن هذه العروض أنهم أرسلوا عتبة بن ربيعة ليعرض على رسول الله ﷺ ما قد رآه حلًا للمشكلة فقال: يا ابن أخي إنك منا حيث قد علمت من المكان في النسب، وقد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم فاسمع مني أعرض عليك أمورًا لعلك تقبل بعضها: إن كنت إنما تريد بهذا الأمر مالًا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالًا، وإن كنت تريد شرفًا، سودناك علينا فلا نقطع أمرًا دونك، وإن كنت تريد ملكًا ملَّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيًا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى تبرأ.

فلما فرغ من قوله تلا رسول الله ﷺ صدر سورة فصلت: ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٌ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٌ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٌ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ [فصلت: ١-٧].

حتى وصل إلى قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ [فصلت: ١٣](١).

الفوائد والآثار الإيمانية:

١ - **قال الجزائري**: إن هذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعِبراً نجملها في الآتي:

- إثبات حيرة المشركين إزاء الدعوة المحمدية وإلى اليوم.

- بيان استعمال المشركين أسلوب المساومات لإحباط الدعوة وإطفاء نورها.

- ثبات النبي صلى الله عليه وسلم ووقوفه كأنه جبلٌ أشم أمام المساومات والتحديات(٢).

٢- ولا شك في أن هذا العرض المغري لو عُرض على أصحاب الحل البرلماني لقالوا ذلك ما كنا نبغي؛ يكون لنا الحكم والسلطان، ثم نُطبق شرع الله عَزَّ وَجَلَّ، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم يعلم أن مُقابل ذلك ثمن باهظ وهو المداهنة في قضية التوحيد أخطر قضية في الدين وهي لا تقبل المداهنة فطريق الرسل هو البداية بإصلاح القلوب والجوارح، ثم بعد ذلك يفتح الله عَزَّ وَجَلَّ عليهم أسباب العزة والنصر والتمكين.

٣- عدم قبول هذه العروض والدخول في مساومات الكفار داخل ولا شك في أمر الله عَزَّ وَجَلَّ لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الحجر: ٩٤]، فالإعراض عن المشركين يشمل الإعراض عن عروضهم ومساوماتهم، ونلاحظ أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يناقش اقتراحاته فهي أسقط وأذل من أن يناقشها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنه وجدها فرصة لأن يدعوه إلى الله عَزَّ وَجَلَّ ، ويقرأ عليه القرآن والقلوب المستعدة للإيمان المهيأة له تنقاد وتلين به، أما القلوب القاسية فإنها لا تتأثر ولا تزداد إلا غيًّا وضلالًا.

---

(١) قال الألباني: هذه القصة أخرجها ابن إسحاق في «المغازي» (١/ ١٨٥) من «سيرة ابن هشام»، بسند حسن عن محمد بن كعب القرظي مرسلًا، ووصله عبد بن حميد وأبو يعلى والبغوي من طريق أخرى من حديث جابر رضي الله عنه كما في «تفسير ابن كثير» (٤/ ٩٠، ٩١) وسنده حسن _ إن شاء الله _.

(٢) باختصار من «هذا الحبيب يا محب» (١٠٩- ١١٠).

السمة الرابعة: اهتمام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتربية الإيمان في قلوب الصحابة وذلك بالاعتقاد الصحيح والتربية بالعبادات:

لا شك ونحن نتلمس خطوات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في إقامة دولة الإسلام، يظهر جليًا كيف كان القرآن ينزل في هذه الفترة بتربية الإيمان في قلوب الصحابة الكرام وذلك بتقرير عقيدة التوحيد، والإيمان باليوم الآخر.

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: أول ما نزل من القرآن سورة فيها ذكر الجنة والنار –تعني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا سورة المدثر– وهي ثاني سورة وفيها يقولَ جلَّ وعَلا: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر :٨-١٠]، وقوله عزَّ وَجلَّ: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ [المدثر :٣١]، وقوله جلَّ وَعَلا: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝٣٨ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ۝٣٩ فِي جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝٤٠ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [المدثر :٣٨-٤١] حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام، ولو نزل الحلال والحرام، ولو نزل من أول الأمر لا تزنوا لقالوا: لا ندع الزنا أبدًا، ولو نزل لا تشربوا الخمر لقالوا: لا ندع الخمر أبدًا. أنزل على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنا جارية ألعب: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر :٤٦] وما نزلت البقرة والنساء إلا وأنا عنده بالمدينة.

وكانت هذه الفترة المباركة كذلك فرصة لتربية الصحابة بالقيم وسائر العبادات، وقد قال ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : عشنا برهة من الدهر وكان أحدنا يؤتي الإيمان قبل القرآن.

فهذا يدل على أن منهج الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ تقديم الإيمان على العلم، وكذلك العلم قبل القول والعمل.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: فرض الله عَزَّ وَجَلَّ على نبيه صلى الله عليه وسلم قيام الليل، فقام النبي صلى الله عليه وسلم وقام الصحابة معه حولًا كاملًا، واحتجز الله عَزَّ وَجَلَّ خاتمة السورة اثنا عشر شهرًا، ثم نزل بعد ذلك التخفيف[١].

وإنما قصدت رضي الله عنها فرض قيام في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ١-٦].

وقصدت رضي الله عنها بالتخفيف الآية الأخيرة من السورة، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ [المزمل: ٢٠].

وقال صفي الرحمن المباركفوري: ولم يزل الرسول صلى الله عليه وسلم يغذي أرواحهم برغائب الإيمان، ويُزكي نفوسهم بتعلم الحكمة والقرآن، ويربيهم تربية دقيقة عميقة، ويحدو بنفوسهم إلى منازل سمو الروح، ونقاء القلب، ونظافة الخلق، والتحرر من سلطان الماديات، والمقاومة للشهوات، والنزوع إلى رب الأرض والسماوات، ويزكي جمرة قلوبهم ويخرجهم من الظلمات إلى النور ويأخذهم بالصبر على الأذى، والصفح الجميل، وقهر النفس، فازدادوا رسوخًا في الدين، وعزوفًا عن الشهوات، وتفانيًا في سبيل المرضاة، وحَنينًا إلى الجنة، وحرصًا على العلم، وفقهًا في الدين، ومحاسبةً للنفس، وقهرًا للنزعات، وغلبة على العواطف، وتسيطرًا على الثائرات والهائجات، وتقيدًا بالصبر والهدوء والوقار[٢].

---

(١) جزء من حديث رواه مسلم (٦/ ٢٦) «صلاة المسافرين»، وأحمد (٦/ ٥٤)؛ وأبو داود [١٣٢٨] «قيام الليل»، والنسائي (٤/ ١٩٩) «قيام الليل».

(٢) «الرحيق المختوم» [١٤٧].

السمة الخامسة: تربية النبي ﷺ للصحابة على الصبر على الإيذاء والإعراض عن الجاهلين:

ويظهر هذا جليًا في قصة خباب عندما شكى إلى النبي ﷺ قال خباب: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة في ظل الكعبة فقلنا: ألا تستنصر لنا! ألا تدعو لنا. فقال: «**قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهَا، فَيُجَاء فيها، ثم يؤتى بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى مَفْرِقِ رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ وَيُمَشَّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ ما دُونِ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ مَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ وَاللهِ لَيُتِمَّنَّ اللهُ تعالى هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ فلا يَخَافُ إِلَّا اللهَ وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِه وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ**»(١).

ولا شك في أن كلام رسول الله ﷺ أبلغ تسلية وتربية على الصبر وهو لا شك ﷺ يستنصر لهم ويدعو لهم إلا أنه أراد ﷺ أن يعلموا أن ذلك سنة ماضية، وأن أهل الإيمان لابد أن يتعرضوا للبلاء، ثم بشرهم كذلك بالنصر والتمكين، وتبديل مخاوفهم أمنًا كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا﴾ [النور: ٥٥].

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: ١٤]: أي يصفحوا عنهم ويحملوا الأذى منهم، وهذا كان في ابتداء الإسلام، أمروا أن يصبروا على أذى المشركين، ليكون ذلك لتأليف قلوبهم، ثم لما أصروا على العناد شرع الله للمؤمنين الجلاد والجهاد(٢).

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ١٤٩) ط. دار المعرفة، بيروت، للحافظ ابن كثير.

وقال سيد قطب: ربما كان ذلك لأن الفترة المكية كانت فترة تربية وإعداد في بيئة معينة لقوم معينين وسط ظروف معينة، ومن أهداف التربية والإعداد في مثل هذه البيئة بالذات تربية نفس الفرد العربي على الصبر على ما لا يصبر عليه عادة من الضيم يقع على شخصه أو على من يلوذون به.

وربما كان ذلك أيضًا لما يعلمه الله من أن كثيرين من المعاندين الذين يفتنون أوائل المسلمين عن دينهم ويعذبونهم ويؤذونهم هم بأنفسهم سيكونون من جند الإسلام المخلص بل من قادته، ألم يكن عمر بن الخطاب من بينهم، وربما كان أيضًا لقلة عدد المسلمين حينذاك، وانحصارهم في مكة حيث لم تبلغ الدعوة إلى بقية الجزيرة[1].

أما الإعراض عن المشركين في قوله تعالى: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾

[الحجر: ٩٤]

قال الأستاذ/ منير الغضبان: إن الإعراض عن المشركين يعني فكرتين في وقت واحد.

الفكرة الأولى: المسيرة بالدعوة من الداعية وإيضاح معالمها غير عابئ بغضب خصومها أو مشاعرهم أو آرائهم.

الفكرة الثانية: عدم مواجهة أذاهم المادي والمعنوي ومحاولاتهم تجريحه والنيل منه والهزء به، ممثلًا في قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ [القصص: ٥٥].

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان: ٦٣][2].

لذا ننصح أنفسنا وإخواننا بالقيام بالدعوة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ والجهر بها غير خائفين ولا هيابين، وفي نفس الوقت نوطن أنفسنا على الصبر على الإيذاء والبلاء، ونسأل الله

(١) «في ظلال القرآن» لسيد قطب: (٣/ ١٤٣٨).
(٢) «المنهج الحركي للسيرة النبوية» (١/ ٤٤).

لنا ولإخواننا ولسائر المسلمين العفو والعافية في الدنيا والآخرة، وليس معنى ذلك أن يتمنى العبد البلاء، فقد قال النبي ﷺ: **«لاَ تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا»**(١).

ولا يستجلب كذلك البلاء لنفسه بأعمال لا يعود منها عز للإسلام وأهله، وإنما هو جلب للبلاء بلا أدنى مصلحة، قال النبي ﷺ: **«لاَ يَنبَغِي لِلمُؤمِن أَنْ يذلَ نَفسُه»**، قالوا: كيف يذل نفسه؟ **قال: «يُعرِّضُ نَفسُه مِنْ البَّلاَءِ لِمَاَ لاَ يَطِيقُ»**(٢). فلابد من ضبط الأمور بالضوابط الشرعية، وتقدير المصالح والمفاسد، والتفريق بين المصلحة المتيقنة والمتوهمة، حتى لا تضيع الجهود وتتحمل الأضرار والمفاسد طلبًا لمصلحة متوهمة بعيدة المنال.

ولعل شوق المسلمين إلى التحاكم إلى شرع الله عَزَّ وَجَلَّ، وحبهم لدين الله عَزَّ وَجَلَّ ولانتصاره يجعلهم يتعجلون الخطى، ويتوهمون أن الإسلام صار قاب قوسين أو أدنى، ثم معرفة مراحل الدعوة والعبودية المطلوبة في كل مرحلة واجب على كل مسلم مخلص يرجو عز الإسلام والمسلمين.

---

(١) رواه البخاري (٦/ ١٨١) الجهاد، ومسلم (١٢/ ٤٥) الجهاد، ومسلم (١٢/ ٤٥) الجهاد.

وقال النووي: إنما نهي عن تمني لقاء العدو لما فيه من صورة الإعجاب، والاتكال على النفس والوثوق بالقوة وهو نوع بغي، وقد ضمن الله تعالى لمن بغى عليه أن ينصره ولأنه يتضمن قلة الاهتمام واحتقاره وهذا يخالف الاحتياط والحزم وتأوله بعضهم على النهي عن التمني في صورة خاصة وهي إذا شك في المصلحة فيه وحصول ضرر وإلا فالقتال كله فضيلة وطاعة والصحيح الأول، ولهذا تممه ﷺ بقوله ﷺ: **«واسألوا الله العافية»** وهي من الألفاظ العامة المتناولة لدفع جميع المكروهات في البدن والباطن في الدين والدنيا والآخرة. اللهم إني أسألك العافية العامة لي ولأحبائي ولجميع المسلمين «شرح النووي على صحيح مسلم» هامش (١٢/ ٤٦).

(٢) رواه الترمذي (٩/ ١١٢) الفتن، وابن ماجة [٤٠١٦] وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب. وصححه الألباني.

السمة السادسة: تبشير الصحابة ﭫ بالنصر والتمكين وهم يعانون أشد ألوان الأذى:

قال الشيخ محمد الغزالي: كان رسول الله ﷺ يبث عناصر الثقة في قلوب رجاله، ويفيض عليهم مما أفاضه الله على فؤاده من أمل رحيب في انتصار الإسلام وانتشار مبادئه، وزوال سلطان الطَّغاة أمام طلائعه المظفرة في المشارق والمغارب، وقد اتخذ المستهزئون من هذه الثقة مادة لسخريتهم وضحكهم؛ كان الأسود بن عبد المطلب وجلساؤه إذا رأوا أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام يتغامزون بهم ويقولون: قد جاءكم ملوك الأرض الذين سيغلبون غدًا على ملك كسرى وقيصر، ثم يصفرون ويصفقون[1].

وقال صفي الرحمن المباركفوري: كان المسلمون يعرفون منذ أول يوم لاقوا فيه الشدة والاضطهاد، وبل ومن قبله، أن الدخول في الإسلام ليس معناه جر المصائب والحتوف، بل إن الدعوة الإسلامية تهدف منذ أول يومها إلى القضاء على الجاهلية الجهلاء ونظامها الغاشم، وأن من أهدافها الأساسية بسط النفوذ على الأرض والسيطرة على الموقف السياسي في العالم، لتقود الأمة الإنسانية والجمعية البشرية إلى مرضاة الله، وتخرجهم من عبادة العباد إلى عبادة الله.

وكان القرآن ينزل بهذه البشارات مرة بالتصريح وأخرى بالكناية ففي تلك الفترات القاسية التي ضيقت الأرض على المسلمين وكادت تخنقهم وتقضي على حياتهم، كانت تنزل الآيات بما جرى بين الأنبياء السابقين وبين أقوامهم الذين قاموا بتكذيبهم والكفر بهم، وكانت تشتمل هذه الآيات على ذكر الأحوال التى تطابق تمامًا أحوال مسلمي مكة وكفارها، ثم تذكر هذه الآيات بما تمخضت عنه تلك الأحوال من إهلاك الكفرة والظالمين وإيراث عباد الله الأرض والديار، فكانت في هذه القصص إشارات واضحة إلى فشل أهل مكة في المستقبل ونجاح المسلمين، مع نجاح الدعوة الإسلامية.

---

(١) «فقه السيرة» [١١٣].

وفي هذه الفترات نزلت آيات تصرح ببشارة غلبة المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٧]

وقال: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥].

وقال: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ﴾ [ص: ١١].

ونزلت في الذين هاجروا إلى الحبشة: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤١].

وحينما كانت الحرب مشتعلة بين الفرس والرومان، وكان الكفار يحبون غلبة الفرس بصفتهم مشركين، والمسلمون يحبون غلبة الرومان بصفتهم مؤمنين بالله والرسل والوحي والكتب واليوم الآخر، وكانت الغلبة للفرس، أنزل الله بشارة غلبة الروم في بضع سنين، ولكنه لم يقتصر على هذه البشارة الواحدة، بل صرح ببشارة أخرى وهي نصر المؤمنين، حيث قال: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٤-٥].

وكان رسول الله ﷺ يقوم بنفسه بمثل هذه البشارات بين آونة وأخرى، فكان إذا وافى الموسم، وقام بين الناس في عكاظ ومجنة وذي المجاز لتبليغ الرسالة لم يكن يبشرهم بالجنة فحسب، بل يقول لهم بكل صراحة: **«أيها الناس قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا وتملكوا بها العرب، وتدين لكم بها العجم فإذا متم كنتم ملوكًا في الجنة»**[1].

(١) لم أقف على الجزء الأخير من الحديث وقوله «**قولوا لا إله إلا الله تفلحوا**» ورد أكثر من حديث منها ما رواه أحمد (٥/ ٣٧٦)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٦/ ٢٢): رجاله رجال الصحيح ومنها ما رواه الطبراني في «الكبير» (٢٠/ ٣٤٣) عن مدركة بن الحارث قال: حججت مع أبي فلما نزلنا مني إذا نحن بجماعة، فقلت لأبي: ما هذه الجماعة؟ قال: هذا الصابئ. فإذا رسول الله ﷺ يقول «**يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله**»، قال الهيثمي في المجمع (٦/ ٢١): رجاله رجال الصحيح.

وقال لخباب رضي الله عنه : «**وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله**» زاد بيان الراوي: «**والذئب على غنمه**». وفي رواية: «**ولكنكم تستعجلون**»(١).

الفوائد والآثار الإيمانية:

١ – دلت الأدلة الكثيرة من الكتاب والسنة الصحيحة على أن العاقبة للمتقين في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص:٨٣].

و قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر:٥١]

و قال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة:٢١].

و قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف:٩].

قال الألباني رحمه الله: تبشرنا هذه الآية الكريمة بأن المستقبل للإسلام بسيطرته وظهوره وحكمه على الأديان كلها، وقد يظن بعض الناس أن ذلك قد تحقق في عهده صلى الله عليه وسلم وعهد الخلفاء الراشدين والملوك الصالحين، وليس كذلك، فالذي تحقق إنما هو جزء من هذا الوعد الصادق، كما أشار إلى ذلك النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: «**لاَ يَذهبُ الليلُ والنَّهارُ حتى تُعبدَ اللاتُ وَالعُّزى**»، فقالت عائشة: يا رسول الله إن كنت لأظن حين أنزل الله ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف:٩] أن ذلك تامًا. قال: «**إنه سيكون من ذلك ماشاء الله**»؛ الحديث(٢).

---

(١) باختصار من «الرحيق المختوم» (١٤٥، ١٤٦)، والحديث تقدم تخريجه.

(٢) رواه مسلم (١٦/ ٣٢) الفتنة وأشراط الساعة. والحاكم (٤/ ٤٤٦، ٤٤٧، ٥٤٩).

وقد وردت أحاديث أخرى توضح مبلغ ظهور الإسلام، ومدى انتشاره بحيث لا يدع مجالًا للشك في أن المستقبل للإسلام بإذن الله وتوفيقه، وها أنا أسوق ما تيسر من هذه الأحاديث عسى أن تكون سببًا لشحذ همم العاملين للإسلام ومحجة على اليائسين المتواكلين.

الأول: **«إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زُوي لي منها»** الحديث(١).

الثاني: **«ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين، بعزِ عزيز، أو بذُل ذَليل، عزًا يعز الله به الإسلام، وذُلًّا يذل به الكفر»**(٢).

الثالث: عن أبي قبيل قال: كنا عند عبد الله بن عمرو بن العاص، وسُئل أي المدينتين تفتح أولًا القسطنطينية أو رومية؟ فدعا عبد الله بصندوق له حلق، قال: فأخرج منه كتابًا، فقال عبد الله: بينما نحن حول رسول الله ﷺ نكتب، إذ سُئل رسول الله ﷺ : أي المدينتين تفتح أولًا أقسطنطينية أو رومية؟ فقال رسول الله ﷺ : **«مدينة هرقل تفتح أولًا – يعني القسطنطينية–»**(٣). قال الألباني: ورومية هي روما كما في معجم البلدان، وهي عاصمة إيطاليا اليوم، وقد تحقق الفتح الأول على يد محمد الفاتح العثماني كما هو معروف، وذلك بعد أكثر من ثمانمائة سنة من إخبار النبي ﷺ ، وسيتحقق الفتح الثاني –بإذن الله تعالى– ولابد، ولتعلمن نبأه بعد حين،

(١) رواه مسلم (١٦/ ١٣) الفتن وأشراط الساعة. والترمذي (٩/ ٢٢) الفتن. وأبو داود [٤٢٣٢] «الفتن والملاحم».

(٢) رواه أحمد (١٠٣/٤). والحاكم (٤/ ٤٣٠، ٤٣١) وقال: صحيح على شرط الشيخين، وابن حبان [١٦٣١] «موارد»، وصححه الألباني على شرط مسلم في «تحذير الساجد» [ص١١٩] وفي «الصحيحة» رقم ٣ (١/ ١/ ٧).

(٣) رواه أحمد (٢/ ١٧٦)، والدارمي (١/ ١٢٦)، والحاكم (٤/ ٥٠٨) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي والألباني في «الصحيحة» رقم (١/ ١/ ٨).

ولا شك أيضًا أن تحقق الفتح الثاني يستدعي أن تعود الخلافة الراشدة إلى الأمة المسلمة، وهذا مما يبشرنا به ﷺ بقوله في الحديث.

الرابع: **«تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على مِنهاج النبوة فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكًا عاضًا فيكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكًا جبريًا فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على مِنهاج النبوة - ثم سكت-»**[١] اهـ. مختصرًا[٢].

٢- قد ينتصر الباطل في جولة من الجولات لتقصير أهل الحق في العمل به، والقيام بواجبهم، كما قال أبو سفيان بعد أن حدثت الهزيمة للمسلمين يوم أحد، لمخالفة بعضهم لأمر رسول الله ﷺ: يوم بيوم بدر، والحرب سجال. إلا أن العاقبة والنتيجة في هذه الجولة التي يظهر فيها الباطل تختلف، فلا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة، وهذا ما أجاب به عمر رضي الله عنه أبا سفيان بن حرب بقوله: قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار[٣].

فمن سقط من صفوف المسلمين في المعركة مع الكافرين فهو شهيد يُساق إلى جنَّة الله، ومن سقط من صفوف الكافرين فإلى الجحيم والعذاب الأليم، فانظر كم بين الفريقين، ثم الجولة النهائية لابد أن تكون للمؤمنين كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣]، فالقضية هل نحن جند مخلصون لله عَزَّ وَجَلَّ؟ هذه هي القضية. فإن كنا كذلك فلابد أن يتحقق فينا موعود الله عَزَّ وَجَلَّ، وكما قال تعالى: **﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾** [النور: ٥٥].

(١) رواه أحمد (٤/ ٢٧٣) وقال الهيثمي في المجمع (٥/ ١٨٩) رجاله ثقات، وهو في «الصحيحة» رقم [٥].
(٢) باختصار من «السلسلة الصحيحة» لمحدث العصر الألباني ونفع سائر الناس بعلومه (١/ ٦-١٠).
(٣) سيأتي تخريجه - إن شاء الله - في غزوة أحد.

فليبشر شباب الصحوة المباركة بهذه النصوص الواضحة التي تبشر بالنصر والتمكين، رغم أنف المعاندين والمكذبين واليهود والنصارى ومن والاهم من المنافقين. وليبشر أعداء الله عَزَّ وَجَلَّ الذين يصدون عن سبيله ويبغونها عوجًا بالخسار والبوار في الدنيا، والعذاب في الآخرة.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٦].

الوقائع العظام والأحداث الجسام
في هذه الفترة من دعوة النبي عليه الصلاة والسلام

بعد أن بينا بحمد الله تعالى السمات العامة لهذه الفترة المباركة، وحتى لا نحرم من صحبة أنفاس النبي صلى الله عليه وسلم الطاهرة، نلقي بعض الضوء على أهم أحداث هذه الفترة، ونعيش مع النبي صلى الله عليه وسلم في آلامه، وأحزانه.

ونلخصها في الآتي:

١- إسلام حمزة بن عبد المطلب.

٢- هجرة الحبشة الأولى.

٣- إسلام عمر بن الخطاب.

٤- هجرة الحبشة الثانية.

٥- الصحيفة الظالمة والمقاطعة العامة.

٦- وفاة خديجة رضي الله عنها وأبي طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم .

٧- رحلة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الطائف.

٨- الإسراء والمعراج.

٩- بيعة العقبة الأولى.

١٠- بيعة العقبة الثانية.

ولنشرع في بيان هذه الأحداث العظام، والله سبحان المستعان وعليه التكلان.

١- إسلام حمزة بن عبد المطلب

إن الأفق المتلبد بالسحب قد يتولد منه برق يضيء، فقد كان هذا الإيذاء والاستهزاء بالنبي ﷺ سببًا لإسلام حمزة عم النبي ﷺ وأخوه من الرضاعة. فقد روى في سبب إسلامه أن جارية عيرته بإيذاء أبي جهل لابن أخيه، فتوجه إليه وغاضبه وسبه، وقال: كيف تسب محمدًا وأنا على دينه، فشجه شجة منكرة، فكان إسلامه في بداية الأمر أنفة، ثم شرح الله صدره بنور اليقين، حتى صار من أفاضل المؤمنين(١).

وعن محمد بن كعب القرظي قال: كان إسلام حمزة رضي الله عنه حمية، وكان يخرج من الحرم فيصطاد، فإذا رجع مرَّ بمجلس قريش، وكانوا يجلسون عند الصفا والمروة، فيمر بهم فيقول: رميت كذا وكذا وصنعت كذا وكذا، ثم ينطلق إلى منزله، فأقبل من رميه ذات يوم فلقيته امرأة فقالت: ماذا لقى ابن أخيك من أبي جهل شتمه وتناوله وفعل وفعل. فقال: هل رآه أحدٌ؟ قالت: إي والله لقد رآه الناس، فأقبل حتى انتهى إلى ذلك المجلس عند الصفا والمروة، فإذا هم جلوس وأبو جهل فيهم فاتكأ على قوسه وقال: رميت كذا وكذا، وفعلت كذا وكذا، ثم جمع يديه بالقوس فضرب بها بين أذني أبي جهل فدق سنتها، ثم قال: خذها بالقوس، وأخرى بالسيف، أشهد أنه رسول الله ﷺ وأنه جاء بالحق من عند الله، قالوا: يا أبا عمارة إنه سب آلهتنا وإن كنت أنت وأنت أفضل منه ما أقررناك، وذاك وما كنت يا أبا عمارة فاحشًا(٢).

---

(١) رواها البيهقي في «الدلائل» قال: حدثنا أبو عبد الله الحافظ إملاءً قال: حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب قال: حدثنا أحمد بن عبد الجبار قال: حدثنا يونس بن بكير، عن محمد بن اسحاق، قال: حدثني رجل من أسلم وكان واعية (٢/ ٢١٣)، ورواها ابن إسحاق (١/ ٣٠٤) ونقلها ابن كثير (٣/ ٣٣) «البداية والنهاية».

(٢) قال الهيثمي: رواه الطبراني مرسلًا ورجاله رجال الصحيح «مجمع الزوائد» (٩/ ٢٦١) باب ما جاء في فضل حمزة.

٢- هجرة الحبشة الأولى

أجمع أكثر العلماء على أنها كانت في رجب سنة خمس من البعثة، وكانوا اثنى عشر رجلًا وأربع نسوة، ورئيسهم عثمان بن عفان رضي الله عنه ومعه السيدة رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان في هذا الفوج أبو سلمة وأم سلمة، وأبو سبرة بن أبي رُهم وزوجه أم كلثوم، وعامر بن ربيعة وزوجه ليلى، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وزوجه سهلة بنت سهيل، وعبد الرحمن ابن عوف، وعثمان بن مظعون، ومصعب بن عمير، وسهيل ابن البيضاء، والزبير بن العوام وجلهم من قريش، ولما انتهوا إلى البحر استأجروا سفينة أوصلتهم إلى مقصدهم، فأقاموا آمنين من أذى يلحق بهم من المشركين، ولم يبق مع النبي صلى الله عليه وسلم إلا القليل.

٣- إسلام عمر بن الخطاب

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر»[١].

وكان إسلام عمر رضي الله عنه بعد هجرة الحبشة الأولى، ورجح بعض العلماء أن هذا كان من أسباب عودة المهاجرين الهجرة الأولى إلى مكة.

أما قصة إسلامه[٢]: عن عبد الله بن عمر قال: ما سمعت عمر لشيء قط يقول: إني لأظنه كذا إلا كان كما يظن. بينما عمر جالس إذ مر به رجل جميل فقال عمر: لقد

(١) رواه البخاري (٧/ ٢١٥) مناقب الأنصار.

(٢) اشتهر في كتب السيرة رواية أسلم مولي عمر في قصة إسلام عمر رضي الله عنه ودخوله على أخته وقراءته القرآن ثم ذهابه إلى دار الأرقم في قصة طويلة مشهورة قال الحافظ نور الدين الهيثمي: رواه البزار وفيه أسامة بن زيد بن أسلم وهو ضعيف (مجمع الزوائد: ٩/ ٦٥).

قلت وفيه أيضًا: إسحاق بن إبراهيم الحنيني، وقد ذكر البزار أنه تفرد به وقال فيه الحافظ: إسحاق بن إبراهيم الحنيني بضم المهملة ونونين مصغرًا أبو يعقوب المدني ضعيف مات سنة ست عشرة من التاسعة (تقريب التهذيب:٥٥).

والقصة ذكرها البيهقي في «الدلائل» مسندة (٢/ ٢١٦) وقال ابن إسحاق: وكان إسلام عمر فيما بلغني، ابن هشام (١/ ٣٥٥).

أخطأت ظني أو إن هذا على دينه في الجاهلية، أو لقد كان هذا كاهنهم على الرجل، فدعى له فقال له ذلك. فقال: ما رأيت كاليوم استقبل به رجل مسلم. قال:فإني أعزم عليك إلا ما أخبرتني. قال: كنت كاهنهم في الجاهلية. قال: فما أعجب ما جاءتك به جنيتك؟ قال: بينما أنا يومًا في السوق، جاءتني أعرف فيها الفزع، فقالت: ألم تر الجنة وإيلاسها، ويأسها من بعد إنكاسها، ولحوق القلاص وأحلاسها. قال عمر: بينما أنا نائم عند آلهتهم، إذ جاء رجل بعجل فذبحه فصرخ به صارخ لم أسمع صارخًا قط أشد صوتًا منه يقول: يا جليح، أمر نجيح، رجل فصيح يقول: لا إله إلا أنت. فقمت، فما نشبنا أن قيل: هذا نبي[(١)].

قال الحافظ: لمح المصنف بإيراد هذه القصة في «باب إسلام عمر» بما جاء عن عائشة وطلحة عن عمر، من أن هذه القصة كانت سبب إسلامه[(٢)].

ومن أسباب إسلامه دعوة النبي ﷺ عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «**اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك، بأبي جهل، وأبو بعمر بن الخطاب، قال: وكان أحبهما إليه عمر**»[(٣)].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «لما أسلم عمر اجتمع الناس عند دارِه، وقالوا: صبأ عمر، وأنا غلام فوق ظهر بيتي، فجاء رجل عليه قباء من ديباج فقال: قد صبأ عمر فما

---

(١) رواه البخاري (٧/ ٢١٥، ٢١٦) مناقب الأنصار.

قوله: «**وإيلاسها**» المراد به اليأس ضد الرجاء.

قوله: «**ويأسها من بعد إنكاسها**» قال ابن فارس معناه: أنها يئست من استراق السمع بعد أن كانت قد ألفته.

قوله: «**ولحوقها بالقلاص وأحلاسها**» القلاص جمع قلوص وهي الفتية من النياق.

والأحلاس: جمع حلس وهو ما يوضع على ظهر الإبل تحت الرحل.

قوله: «**يا جليح**» معناه: الوقح المكافح بالعداوة.

قوله: «**رجل فصيح**» من الفصاحة. باختصار من «الفتح» (٧/ ٢١٩، ٢٢٠).

(٢) «فتح الباري» (٧/ ٢٢٠).

(٣) رواه الترمذي (١٣، ١٤٣) المناقب، وقال الترمذي: هذا حديث صحيح غريب من حديث ابن عمر، وصححه الألباني رقم [٢٩٠٧] «صحيح الترمذي».

ذاك؟ فأنا له جار. قال: فرأيت الناس تصدعوا عنه. فقلت: من هذا؟ قالوا: العاص بن وائل»[(١)].

وعن ابن عمر قال: لما أسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه لم تعلم قريش بإسلامه فقال: أي أهل مكة أنشأ للحديث؟ فقالوا: جميل بن معمر الجمحي.فخرج إليه وأنا معه أتبع أثره أعقل ما أرى وأسمع، فأتاه فقال: يا جميل، إني قد أسلمت. قال: فوالله ما رد عليه كلمة حتى قام عامدًا إلى المسجد، فنادى أندية قريش فقال: يا معشر قريش. إن ابن الخطاب صبأ.

فقال عمر: كذب، ولكني أسلمت وآمنت بالله وصدقت رسوله فثاوروه، فقاتلهم حتى ركدت الشمس على رؤوسهم حتى فتر عمر وجلس، فقاموا على رأسه، فقال عمر: افعلوا ما بدا لكم، فوالله لو كنا ثلاث مئة رجل لقد تركتموها لنا أو تركناها لكم. فبينما هم كذلك قيام عليه، إذ جاء رجل عليه حلة حرير وقميص قومسي، فقال: ما بالكم؟ فقالوا: إن ابن الخطاب قد صبأ، قال: فمه، امرؤ اختار دينًا لنفسه أفتظنون أنَّ بني عدي تسلم إليكم صاحبهم؟ قال: فكأنما كانوا ثوبًا انكشف عنه، فقلت له بعد بالمدينة؟ يا أبت من الرجل الذي رد عنك القوم يؤمئذ؟ فقال: يا بني، ذاك العاص بن وائل[(٢)].

٤- هجرة الحبشة الثانية

ظن المهاجرون الكرام رضي الله عنهم أن الاضطهاد الواقع على المسلمين بمكة قد خفت وطأته، واشتدت عليهم الغربة فعادوا فلم يجدوا الأخبار التي وصلتهم صادقة، وكان الأمر أشد على المسلمين، فلم يجد النبي صلى الله عليه وسلم بدًّا من أن يشير عليهم بالهجرة مرة ثانية.

(١) رواه البخاري (٧/ ٢١٥) مناقب الأنصار.

(٢) رواه ابن حبان (١٥/ ٣٠٢، ٣٠٣) رقم [٦٨٧٩] وعبد الله بن أحمد في زياداته على فضائل الصحابة [٣٧٢] وقال الهيثمي في المجمع: رواه البزار والطبراني باختصار ورجاله ثقات إلا أن ابن إسحاق مدلس. وقال شعيب الأرناؤوط في «الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان»: إسناد قوي ورواه مختصرًا الحاكم (٣/ ٨٥) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

عن أم سلمة بننت أبي أمية بن المغيرة زوج النبي ﷺ قالت: لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير الجار النجاشي، أمنا على ديننا وعبدنا والله تعالى لا نؤذي ولا نسمع شيئًا نكرهه، فلما بلغ ذلك قريشًا ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين منهم جليدين، وأن يهدوا للنجاشي هدايا مما يستطرف من متاع مكة، وكان من أعجب ما يأتيه منها الأدم أدمًا كثيرًا، ولم يتركوا من بطارقته بطريقًا إلا أهدوا له هدية، ثم بعثوا بذلك عبدالله بن أبي ربيعة، وعمرو بن العاص فأمروهما بأمرهم، وقالوا لهما: ادفعوا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلما النجاشي فيهم، ثم قدما إلى النجاشي هداياه، ثم سلاه أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم. قال: فخرجا حتى قدما على النجاشي ونحن عنده بخير دار عند خير جار، فلم يبق من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلما النجاشي، وقالا لكل بطريق منهم: إنه قد ضوى إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينكم، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ليردهم إليهم، فإذا كلمنا الملك فيهم، فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم، فإن قومهم أعلى بهم عينًا وأعلم بها عابوا عليهم فقالوا لهما: نعم، ثم إنهما قدما هداياهما إلى النجاشي، فقبلها منهما ثم كلماه فقالا له: أيها الملك إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم عليهم، فهو أعلى بهم عينًا وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه.قالت: ولم يكن شيء أبغض إلى عبدالله بن أبي ربيعة وعمرو ابن العاص من أن يسمع كلامهم النجاشي، قالت: فقالت بطارقته حوله: صدقًا أيها الملك قومهم أعلى بهم عينًا وأعلم بما عابوا عليهم، فأسلمهم إليهما، فليرداهم إلى بلادهم وقومهم، قالت: فغضب النجاشي، ثم قال: لاها الله إذا لا أسلمهم إليهما، ولا يكاد قوم جاوروني ونزلوا بلادي واختاروني على من سواى حتى أدعوهم فاسألهم عما يقول هذان في أمرهم، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك

منعتهم منهما وأحسنت جوارهم ما جاوروني. قالت: ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم فلما جاءهم رسوله اجتمعوا ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول والله ما علمنا وما أمرنا به نبينا كائنًا في ذلك ما هو كائن. فلما جاءوا، وقد دعا النجاشي أساقفته فنشروا مصاحفهم حوله، سألهم فقال لهم: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا ديني ولا دين أحد من هذه الملل؟.

قالت: فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب فقال له: أيها الملك، كنا قومًا أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولًا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام. قالت: فعدد عليه أمور الإسلام. فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئًا وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فغدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى وأن نستحل ما كنا تستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على ما سواك ورغبنا في جوارك ورجونا أن لا نُظلم عندك أيها الملك. قالت: فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ فقال له جعفر: نعم، فقال له النجاشي: فاقرأه علي، فقرأ عليه صدرًا من (كهعيص) قالت: فبكى والله النجاشي حتى اخضلت لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصافحهم حين سمعوا ما تلا عليهم. ثم قال النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة. انطلقا، فلا والله لا أسلمهم إليكما ولا يكادون. قالت: فلما خرجا من عنده قال عمرو بن العاص، والله لآتينه غدًا عنهم بما أستأصل به خضراءهم، قالت: فقال له عبدالله بن

أبي ربيعة وكان أتقى الرجلين فينا: لا تفعل، فإن لهم أرحامًا وإن كانوا قد خالفونا، قال: والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى ابن مريم عبد قال: ثم غدا عليه من الغد فقال: أيها الملك إنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولًا عظيمًا فأرسل إليهم فسلهم عما يقولون فيه، قالت: فأرسل إليهم ليسألهم عنه قالت: ولم ينزل بنا مثلها قط، فاجتمع القوم ثم قال بعضهم لبعض: ماذا تقولون في عيسى ابن مريم إذا سألكم عنه؟ قالوا: نقول والله ما قال الله وما جاءنا به نبينا كائنًا في ذلك ما هو كائن، قالت: فلما دخلوا عليه، قال لهم: ماذا تقول في عيسى ابن مريم؟ قالت: فقال جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الذي جاءنا به نبينا ﷺ: هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول. قالت: فضرب النجاشي بيده إلى الأرض فأخذ منها عودًا ثم قال: والله ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود(١) الحديث.

الفوائد والآثار الإيمانية:

١- **قال الجزائري**: إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نجملها فيما يأتي: مشروعية الهجرة وهي الانتقال من بلد الكفر حيث تعذر على العبد أن يعبد الله إلى دار يتمكن فيها من عبادة الله تعالى بدون تعذيب.

بيان خطر الشائعات، إذا بها رجع المهاجرون ولاقوا ما لاقوا من العذاب حتى اضطروا إلى الهجرة مرة ثانية(٢).

٢- هذه الحادثة مصداق لقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾ [الطلاق: ٢]، وفيها لطف الله عَزَّ وَجَلَّ بأوليائه ودفاعه عنهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ

(١) رواه ابن هشام عن ابن إسحاق (٢/ ٨٧، ٨٨) من «سيرة ابن هشام مع الروض» ومن طريقه أحمد (١٧٤٠ شاكر)، وابن خزيمة [٢٢٦٠] وصححه، وكذا أبو نعيم في «الحلية» (١/ ١١٥، ١١٦)، والبيهقي في الاعتقاد [١١]، وقال العلامة أحمد شاكر: إسناده صحيح وصحح إسناده كذلك الألباني في تحقيق فقه السيرة [١٣٤] وله شاهد عن ابن مسعود في «مسند أحمد» (٤٤٠٠ شاكر).
(٢) «هذا الحبيب يا محب» [١٢٢].

﴿يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج: ٣٨]، وفيها كذلك مِصداق لقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦]. وفيها كذلك عاقبة الصدق، وكيف أن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ومن معه صدقوا مع النجاشي ولم يكتموا شيئًا من عقيدتهم فكانت العاقبة أحسن العواقب وأحمدها.

٣- وفي القصة كذلك فضل النجاشي، وفيه كذلك ما رواه البخاري عن جابر رضي الله عنه: قال النبي صلى الله عليه وسلم حين مات النجاشي: «**مات اليوم رجل صالح فقوموا فصلوا على أخيكم أصحمة**»(١). والنجاشي لقب من ملك الحبشة.

٥- الصحيفة الظالمة والمقاطعة العامة

قال الإمام محمد بن يوسف الصالحي الشامي: قال أبو الأسود والزهري وموسى بن عقبة وابن إسحاق: إن قريشًا لما رأت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نزلوا بلدًا أصابوا فيه أمنًا وقرارًا، وأن النجاشي قد منع من لجأ إليه منهم، وأن عمر قد أسلم وكان رجلًا ذا شكيمة لا يُرام ما وراء ظهره امتنع به أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبحمزة حتى عازوا قريشًا فكان هو وحمزة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وجعل الإسلام يفشو في القبائل، فأجمعوا رأيهم واتفق رأيهم على قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقالوا: قد أفسد علينا أبناءنا ونساءنا فقالوا لقومه: خذوا منا ديةً مضاعفة وليقتله رجل من غير قريش وتريحون أنفسكم، فأبى قومه بنو هاشم من ذلك، وظاهرهم بنو المطلب بن عبد مناف.

فلما عرفت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد منعه قومه، فأجمع المشركون من قريش على منابذتهم وإخراجهم من مكة إلى الشعب، وأجمعوا وائتمروا أن يكتبوا كتابًا يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني المطلب على أن لا ينكحوهم ولا ينكحوا إليهم، ولا

(١) رواه البخاري (٧/ ٢٣٠) مناقب الأنصار.

يبيعوهم شيئًا ولا يبتاعوا منهم، ولا يقبلوا منهم صلحًا، ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلموا رسول الله ﷺ للقتل.

فلما اجتمعوا لذلك كتبوا صحيفة ثم تعادوا وتعاقدوا على ذلك، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيدًا على أنفسهم، وقطعوا عنهم الأسواق، ولم يتركوا طعامًا ولا إدامًا ولا بيعًا إلا بادروا إليه واشتروه دونهم. فلما فعلت ذلك قريش انحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب، فدخلوا معه في شِعبة مؤمنهم وكافرهم، فالمؤمن دينًا والكافر حَمِيّة. وخرج من بني هاشم أبو لهب إلى قريش فظاهرهم.

قال ابن إسحاق وغيره: فأقاموا على ذلك ثلاث سنين حتى جهدوا لا يصل إليهم شئ إلا سرًا مُستخفيًا به من أراد صلتهم من قريش(١).

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ثم سعى في نقض تلك الصحيفة أقوام من قريش، فكان القائم في أمر ذلك هشام بن عمرو بن ربيعة بن الحارث بن حبيب بن جذيمة بن مالك ابن حِسل بن عامر بن لؤي، مشى في ذلك إلى مطعم ابن عُدي وجماعة من قريش فأجابوه إلى ذلك، وأخبر رسول الله ﷺ قومه أن الله قد أرسل على تلك الصحيفة الأرضة فأكلت جميع ما فيها إلا ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ، فكان كذلك، ثم رجع بنو هاشم وبنو المطلب إلى مكة، وحصل الصلح برغم من أبي جهل عمرو بن هشام(٢).

والسؤال الآن: كيف صبر بنو هاشم وبنو المطلب مؤمنهم وكافرهم على هذه المحنة الشديدة والبلاء المبين؟.

وجوابه: والله أعلى وأعلم وأعز وأحكم، أن صبر المشركين كان من أجل العصبية وحَمِيّة القرابة والرحم، وإباء الذُّل الذي كان يتلبس بهم لو أنهم خلوا بين محمد ﷺ

---

(١) باختصار من «سبيل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد» (٢/ ٥٠٢، ٥٠٤) ط. مجمع البحوث الإسلامية.

(٢) «الفصول في اختصار سيرة الرسول» ﷺ للحافظ ابن كثير [٩٠، ٩١] تحقيق وتعليق محمد العيد الخطراوي ومحيي الدين مستو.

ومشركي قريش من غير بني هاشم وبني المطلب يقتلونه ويفتكون به، بقطع النظر عن العقيدة والدين[١].

أما المسلمون فلأسباب عدة:

١- الإيمان بالله الذي خالطت بشاشته قلوبهم: فلا يبالون ما ينال أجسادهم من إيذاء، ما دام هذا الإيذاء والتعذيب سببًا من أسباب رحمه الله وفضله، وقد سأل هرقل أبا سفيان بن حرب عن أصحاب رسول الله ﷺ فقال: «هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه؟ قال: لا. فقال: كذلك الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب»[٢].

٢- وجود القيادة المؤمنة الواعية المتصفة بالفضائل: والخالية من القصور والرذائل، ولا شك في أن من أهم أسباب الصبر والنصر وجود مثل هذه القيادة. كما قال ابن كثير: رفعت قريش خبيبًا رضي الله عنه على الخشبة عند صلبه ونادته: أتحب أن محمدًا مكانك وأنك مُعافًا في أهلك ومالك؟ قال: لا والله العظيم ما أحب أن يفديني بشوكة يشاكها في قدمه، فضحكوا منه.

---

(١) روى ابن إسحاق الشعر الذي ذكره أبو طالب وقد صرح فيه أنه غير مسلم رسول الله ﷺ ولا تاركه لشئ أبدًا حتى يهلك دونه فقال:

وَلَمَّا رأيتُ القَومَ لاَ ودَّ فيهم ... وَقَدْ قَطعُوا كلَّ العُرى وَالوَسائِلِ
وَقَدْ صَارحُونَا بالعداوة وَالأذَى ... وَقَدْ طَاعُوا أَمرَ العدوِ المزيلِ
وَقَدْ حالَفُوا قومًا علينا أظنةً ... يَعضُون غيظًا خلفنا بالأناملِ
صبَرتُ لهم نَفسِي بسمراءِ سمحةٍ ... وَأبيضِ عَضبُ مِنْ تُراثِ المقاولِ
وَأَحضرتُ عندَ البيتِ رهطِي وإخوتي ... وَأمسكتُ مِنْ أثوابِه بالوصائلِ
قِيامًا معًا مستقبلينَ رتَاجةً ... لِديَّ حيثُ يَقضِي حلفُه كلُّ نَافِلِه

شرح «سيرة ابن هشام» «الروض الأنف، ٢/ ١٣».

(٢) الحديث رواه البخاري (١/ ٤٢، ٤٣) بدء الوحي.

وفي ذلك يقول الشاعر:

أَســـرتْ قُـــريـــشٌ مُـسـلـمًـا فـمَـضَـى بـلا وَجَـلٍ إلَى السَّيَّاف
سَـألـوهُ هَـل يُـرْضِيـكَ أنَّـكَ سَـالِمٌ وَلَـكَ الـنَّـبيُّ فـدى مَـن الإتـلافَ
فَأجَابَ كَلا لا سَلِمْتُ مِنِ الردَى وَيُـصـابُ أنـفُ مُحَـمَّـدٍ بِـرُعَـافِ

وكان من أثر حبهم لرسول الله ﷺ أنهم كانوا يرضون أن تندق أعناقهم ولا يخدش له ظفر.

٣- الشعور بالمسئولية: قال صفي الرحمن المباركفوري: فكان الصحابة يشعرون شعورًا تامًا ما على كواهل البشر من المسئولية الفخمة الضخمة، وأن هذه المسئولية لا يمكن عنها الحياد والانحراف بحال، فالعواقب التي تترتب على الفرار عن تحملها أشد وخامة وأكبر ضررًا عما هم فيه من الاضطهاد، وأن الخسارة التي تلحقهم وتلحق البشرية جمعاء بعد هذا الفرار لا يقاس بحال على المتاعب التي كانوا يواجهونها نتيجة هذا التحمل(١).

٤- تبشير القرآن والنبي ﷺ لهم برحمة الله ورضوانه وعذاب الكافرين ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر: ٤٨]. وتبشير الصحابة كذلك بالنصر والتمكين في الدنيا وهلاك الكافرين والمكذبين.

لاشك أن هذه العوامل الأربعة كانت من أقوى العوامل على الصبر والثبات.

٦- وفاة أبي طالب وخديجة رضي الله عنها

قال ابن إسحاق: ثم إن خديجة بنت خويلد وأبا طالب هلكا في عام واحد فتتابعت على رسول الله ﷺ المصائب بهُلك خديجة، وكانت له وزير صدق على الإسلام يشكو إليها، وبهلك عمه أبي طالب وكان له عضدًا وحرزًا في أمره ومنعةً وناصرًا على

(١) «الرحيق المختوم» [١٤٣].

قومه، وذلك قبل مهاجره إلى المدينة بثلاث سنين، فلما هلك أبو طالب نالت قريش من رسوله الله ﷺ الأذى ما لم تكن تطمع به في حياة أبي طالب(١).

عن المسيب أن أبا طالب لما حضرته الوفاة دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل فقال: «**أي عم قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله**». فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب ترغب عن ملة عبد المطلب. فلم يزالا يُكلماه حتى قال آخر شيء كلمهم به: على ملة عبد المطلب، فقال النبي ﷺ: «**لأستغفرنَّ لك ما لم أنه عنك**» فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣]؛ ونزلت: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦](٢).

وعن العباس بن عبد المطلب قال للنبي ﷺ: «ما أغنيت عن عمك، فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟» قال: «**هو في ضحضاح من نار، ولولا أنا لكان في الدَّرْكِ الأسفل من النار**»(٣).

ورجح ابن الجوزي في تلقيح فهوم أهل الأثر أن وفاة خديجة رضي الله عنها كان بعد وفاة أبي طالب بنحو شهرين أو ثلاثة(٤)، وكان في رمضان من السنة العاشرة من البعثة النبوية، ولها خمس وستون سنة. وفي شوال من هذه السنة تزوج رسول الله ﷺ سودة بنت زمعة وكانت ممن أسلم قديمًا، وهاجرت الهجرة الثانية إلى الحبشة، وكان زوجها السكران بن عمرو، مات بأرض الحبشة أو بعد الرجوع إلى مكة.

---

(١) «سيرة ابن هشام» مع «الروض الأنف» (٢/ ١٦٦).
(٢) رواه مسلم (١/ ٣١٤) «الإيمان».
(٣) رواه البخاري (٧/ ٢٣٣) «مناقب الأنصار»، ومسلم (٣/ ٨٤) «الإيمان».
(٤) ورجح ابن كثير أنه كان بينهما ثلاثة أيام انظر: «الفصول في اختصار سيرة الرسول ﷺ» [٩٢].

٧- خروج المصطفى ﷺ إلى الطائف

قال ابن إسحاق: ولما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تنال منه في حياة عمه أبي طالب، فخرج رسول الله ﷺ إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف، والمنعة بهم من قومه، ورجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله عَزَّ وَجَلَّ، فخرج إليهم وحده (١).

عن عروة أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ حدثته أنها قالت للنبي ﷺ : هل آتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ قال: «**لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كُلال فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال فسلم عليّ ثم قال: يامحمد، فقال: ذلك فيما شئت: إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين؟**» فقال النبي ﷺ : «**بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا**»(٢).

قال الحافظ ما ملخصه: كان ابن عبد ياليل من أكابر أهل الطائف من ثقيف وقد روى عبد بن حميد في «تفسيره» من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف :٣١]، قال: نزلت في عتبة بن ربيعة وابن عبد ياليل الثقفي، ومن طريق قتادة قال: هما الوليد بن المغيرة، وعروة ابن مسعود.

وقد ذكر موسى بن عقبة وابن إسحاق أن كنانة بن عبد ياليل وفد مع وفد الطائف سنة عشر فأسلموا، وذكره ابن عبد البر في الصحابة لذلك، لكن ذكر المديني أن الوفد

---

(١) «سيرة ابن هشام» مع «الروض الأنف» (٢/ ١٧٢).
(٢) رواه البخاري (٦/ ٣٦٠) «بدء الخلق»، ومسلم (١٢/ ١٥٤، ١٥٥) «الجهاد».

أسلموا إلا كنانة فخرج إلى الروم ومات بعدها بعد ذلك، والله أعلم. وذكر موسى بن عقبة في المغازي عن ابن شهاب أنه ﷺ لما مات أبو طالب توجه إلى الطائف رجاء أن يؤوه، فعمد إلى ثلاثة نفر من ثقيف وهم سادتهم، وهم إخوة عبد ياليل وحبيب ومسعود بنو عمرو، فعرض عليهم نفسه، وشكى إليهم ما انتهك منه قومه، فردوا عليه أقبح رد، وكذا ذكره ابن إسحاق بغير إسناد مطولًا وذكر ابن سعد أن ذلك كان في شوال سنة عشرة من المبعث، وأنه كان بعد موت أبي طالب وخديجة (١).

٨- الإسراء والمعراج

قال الجزائري حفظه الله: كان مكافأة ربانية على ما لاقاه الحبيب ﷺ من أتراح وآلام وأحزان، إذا كان بعد حصار دام ثلاث سنوات في شعب أبي طالب، وما لاقاه في أثنائه من رجوع وحرمان، إنه كان بعد فقد الناصر الحميم، وفقد خديجة أم المؤمنين، إنه كان بعد خيبة الأمل في ثقيف، وما ناله من سفهائها وصبيانها وعبيدها.

بعد هذه الآلام كافأ الحبيب فرفعه إليه، وقربه وأدناه، وخلع عليه من حِلل الرضا ما أنساه كل ما كان قد لاقاه من حزن وألم ونصب وتعب، وما قد يلاقيه في سبيل إبلاغ رسالته ونشر دعوته، فصلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ما ذكر الله الذاكرون، وما غفل عن ذكره الغافلون(٢).

وما أسعدنا في هذا الفصل بالآيات والأحاديث الصحيحة في البخاري ومسلم، فلن ندعها لروايات أهل السير.

قال الله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

---

(١) «فتح الباري» (٦/ ٣٦٣)، وقرن الثعالب هى ميقات أهل نجد ويقال لها قرن المنازل أيضًا.

(٢) «هذا الحبيب يا محب» [١٣٥].

قال القاسمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: دلت هذه الآية على ثبوت الإسراء، وهو سير النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى بيت المقدس ليلًا، وأما العروج إلى السموات فهذه الآية لا تدل عليه، ومنهم من يستدل عليه بأول سورة النجم[(١)].

قال القاضي عياض: وذهب معظم السلف والمسلمين إلى أنه إسراء بالجسد وفي اليقظة وهذا هو الحق. قال القاضي عياض: والصحيح - إن شاء الله - أنه إسراء بالجسد والروح في القصة كلها، وعليه تدل الآية وصحيح الأخبار والاعتبار، ولا يعدل عن الظاهر والحقيقة إلى التأويل إلا عند الاستحالة[(٢)]، إذ لو كان منامًا لقال بروح عبده ولم يقل بعبده، وقوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم:١٧]، ولو كان منامًا لما كان فيه آية ولا معجزة، ولما استبعده الكفار ولا كذبوه فيه، ولا ارتد به ضعفاء من أسلم وافتنوا به، إذ مثل هذا من المنامات لا ينكر، بل لم يكن ذلك منهم إلا وقد علموا أن خبره إنما كان عن جسمه وحال يقظته[(٣)].

ولنذكر رواية مسلم لقصة الإسراء والمعراج لأنها أتم من رواية البخاري، حيث أشارات إلى قصة الإسراء والمعراج، وأما رواية البخاري فاقتصرت على قصة المعراج.

عن أنس بن مالك أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «أُتِيتُ بِالْبُرَاقِ - وَهُوَ دَابَّةٌ أَبْيَضُ فَوْقَ الْحِمَارِ وَدُونَ الْبَغْلِ، يَضَعُ حَافِرَهُ عِنْدَ مُنْتَهَى طَرْفِهِ - قَالَ: فَرَكِبْتُهُ حَتَّى أَتَيْتُ

(١) بتصرف من محاسن التأويل (١٠/ ١٨٧، ١٨٨).
(٢) الصحيح عند وجود نص أو قرينة تدل على أن الظاهر غير مراد.
(٣) «الشفا في التعريف بحقوق المصطفى» (١/ ١٨٩).
ومما يدل على أنه كان يقظة كذلك ما رواه البخاري (٧/ ٢٣٦) عن جابر بن عبدالله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنه سمع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**لما كذبتني قريش قمت في الحجر فجلى الله لي بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته**».
فلو أنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبرهم بأنها رؤيا رآها لما اختبروه بالسؤال عن آياته وعلاماته وهذه أيضًا معجزة ثانية لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

بَيْتَ الْمُقْدِسِ قَالَ: فَرَبَطْتُهُ بِالْحَلْقَةِ الَّتِى يَرْبِطُ بِهِ الأَنْبِيَاءُ قَالَ: ثُمَّ دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَصَلَّيْتُ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ خَرَجْتُ فَجَاءَنِى جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ فَاخْتَرْتُ اللَّبَنَ، فَقَالَ جِبْرِيلُ للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اخْتَرْتَ الْفِطْرَةَ.

ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِآدَمَ، فَرَحَّبَ بِي وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ.

ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقِيلَ مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ:مُحَمَّدٌ. قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِابْنَي الْخَالَةِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَيَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّا صَلَوَاتُ الله عَلَيْهِمَا فَرَحَّبَا وَدَعَوَا لِي بِخَيْرٍ.

ثُمَّ عَرَجَ بِى إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ. فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ،

قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِيُوسُفَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، إِذَا هُوَ قَدْ أُعْطِيَ شَطْرَ الْحُسْنِ فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ.

ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ.

قَالَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بإدريس فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ قَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم :٥٧].

ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الْخَامِسَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ. فَقِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ.

قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِهَارُونَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ.

ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

فقِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى ﷺ، فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ.

ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ فَقِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ مُحَمَّدٌ ﷺ. قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِإِبْرَاهِيمَ ﷺ مُسْنِدًا ظَهْرَهُ إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ، وَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ لا يَعُودُونَ إِلَيْهِ، ثُمَّ ذَهَبَ بِي إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، وَإِذَا وَرَقُهَا كَآذَانِ الْفِيَلَةِ، وَإِذَا ثَمَرُهَا كَالْقِلالِ، قَالَ: فَلَمَّا غَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ اللهِ مَا غَشِيَ تَغَيَّرَتْ فَمَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْعَتَهَا مِنْ حُسْنِهَا، فَأَوْحَى اللهُ إِلَيَّ مَا أَوْحَى، فَفَرَضَ عَلَيَّ خَمْسِينَ صَلاةً فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَنَزَلْتُ إِلَى مُوسَى ﷺ فَقَالَ: مَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَى أُمَّتِكَ؟ قُلْتُ: خَمْسِينَ صَلاةً. قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ فَإِنَّ أُمَّتَكَ لا يُطِيقُونَ ذَلِكَ، فَإِنِّي قَدْ بَلَوْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَخَبَرْتُهُمْ. قَالَ: فَرَجَعْتُ إِلَى رَبِّي فَقُلْتُ: يَا رَبِّ خَفِّفْ عَنْ أُمَّتِي. فَحَطَّ عَنِّي خَمْسًا فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقُلْتُ: حَطَّ عَنِّي خَمْسًا. قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لاَ يُطِيقُونَ ذَلِكَ فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ. قَالَ: فَلَمْ أَزَلْ أَرْجِعُ بَيْنَ رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَبَيْنَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حَتَّى قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّهُنَّ خَمْسُ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، لِكُلِّ صَلاةٍ عَشْرٌ فَذَلِكَ خَمْسُونَ صَلاةً، وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ شَيْئًا، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ سَيِّئَةً وَاحِدَةً، قَالَ: فَنَزَلْتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى مُوسَى ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «فَقُلْتُ: قَدْ رَجَعْتُ إِلَى رَبِّي حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ»(١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: واختلف الصحابة هل رأى ربه تلك الليلة أم لا؟ فصح عن ابن عباس أنه رأى ربَّه، وصَحَّ عنه أنه قال: رآه بفؤاده(٢).

(١) رواه مسلم (٢/ ٢١٠،٢١٥) الإيمان، والبخاري (٧/ ٢٤/ ٢٤٢) مناقب الأنصار.

(٢) رواه مسلم (٣/ ٧) الإيمان، والترمذي (١٢/ ١٧٢) التفسير.

وصح عن عائشة وابن مسعود إنكار ذلك، وقالا: إن قوله ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ١٣، ١٤] إنما هو جبريل(١).

وصح عن أبي ذر أنه سأله: هل رأيت ربك؟ فقال: «**نور أنَّى أراه**» أي حال بيني وبين رؤيته النور كما في اللفظ الآخر: «**رأيت نورًا**»(٢). وقد حكى عثمان بن سعيد الدارمي اتفاق الصحابة على أنه لم يره(٣).

قال ابن القيم: فلما أصبح رسول الله ﷺ في قومه أخبرهم بما أراه الله عَزَّ وَجَلَّ من آياته الكبرى، فاشتد تكذيبهم له وأذاهم، واستضرارهم عليه وسألوه أن يصف لهم بيت المقدس فجلاه الله له حتى عاينه، فطفق يخبرهم عن آياته ولا يستطيعون أن يردوا عليه شيئًا، وأخبرهم عن عيرهم في مسراه ورجوعه وأخبرهم عن وقت قدومها وأخبرهم عن البعير الذي يقدمها، وكان الأمر كما قال، فلما يزدهم ذلك إلا نفورًا، وأبى الظالمون إلا كفورًا(٤).

الفوائد والآثار الإيمانية:

١- **قوله عَزَّ وَجَلَّ:** ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء: ١] فيه فضل المسجد الأقصى.

قال القاسمي: «والأقصا» بمعنى الأبعد، سمى بذلك لبعده عن مكة، وقوله: ﴿ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ أي جوانبه ببركات الدين والدنيا، لأن تلك الأرض المقدسة مقر الأنبياء ومهبط وحيهم ومنهى الزوع والثمار، فاكتنفته البركة الإلهية الركة الإلهية من

(١) رواه البخاري (٨/ ٤٧٢) التفسير، ومسلم (٣/ ٧) الإيمان.

قال أبو هريرة: رأى جبريل وعن عائشة ﵂ قالت: زعم أن محمدًا ﷺ رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية.

(٢) رواه مسلم (٣/ ١٢) الإيمان، والترمذي (١٢/ ١٧٢) التفسير.

(٣) «زاد المعاد» (٣/ ٣٦، ٣٧).

(٤) السابق (٣/ ٣٨، ٣٩).

نواحيه كلها، فبركته إذن مضاعفة، لكونه في أرضٍ مُباركة، ولكونه من أعظم مساجد الله تعالى، والمساجد بيوت الله، ولكونه متعبد الأنبياء، ومقامهم ومهبط وحيه عليهم، فبورك منه ببركتهم ويُمنهم أيضًا.

وقد قيل في خصائص (الأقصى) أنه متعبد الأنبياء السابقين، ومسرى خاتم النبيين، ومعراجه إلى السماوات العلى، والمشهد الأسمى، بيت نوّه الله به في الآيات المفصلة، وتليت فيه الكتب الأربعة المنزلة لأَجله أمسك الله الشمس على يوشع أن تغرب ليتيسر فتحه على من وعدوا به ويقرب، وهو قبلة الصلاة في الملتين وفي صدر الإسلام بعد الهجرتين، وهو أولى القبلتين، وثاني المسجدين، وثالث الحرمين، لا تشد الرحال بعد المسجدين إلا إليه ولا تعقد الخناصر بعد الموطنين إلا عليه. انتهى.

ومن فضائله ما رواه الإمام أحمد والنسائي والحاكم وصححه عن ابن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن سليمان لما بنى بيت المقدس سأل ربه ثلاثًا فأعطاه اثنتين وأنا أرجو أن يكون أعطاه الثالثة: سأله حُكمًا يصادف حُكمه فأعطاه إياه. وسأله مُلكًا لا ينبغي لأحد من بعده فأعطاه إياه. وسأله أيما رجل خرج من بيته لا يريد إلا الصلاة في هذا المسجد - يعني بيت المقدس - خرج من خطيئته كيوم ولدته أمه»**. قال النبي ﷺ: **«ونحن نرجو أن يكون الله أعطاه ذلك»**(١).

فنسال الله تعالى أن يطهره من أنجاس اليهود، وأن ترفرف راية الإسلام مرة ثانية على القدس وغيرها من بلاد المسلمين، وأن يمتنعا الله عَزَّ وَجَلَّ بالصلاة فيه كما حدث في عهد صلاح الدين، حيث خطب إمام الجمعة في أول صلاة تقام فيه بعد عودته، وابتدأ خطبته بقوله: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥].

---

(١) «محاسن التأويل» (١٠/ ١٨٥).

والحديث رواه أحمد (٢/ ١٧٦) رقم [٦٦٤٤ شاكر]، والنسائي (٢/ ٣٤) المساجد: باب فضل المسجد الأقصى، وابن ماجه [١٤٠٨]، وابن خزيمة [٦٠٨] صحيح ابن خزيمة وقال العلامة أحمد شاكر: إسناده صحيح، والحاكم (١/ ٣٠، ٣١) الإيمان، وقال: صحيح ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح النسائي وابن ماجه.

فنسأل الله كما قطع دابر الذين احتلوه في المرة الأولى أن يقطع دابرهم في المرة الثانية، وأن يستعملنا في ذلك، إنه على كل شئ قدير، وبالإجابة جدير.

٢- ***قال الغزالي تحت عنوان حكمة الإسراء:*** ذلك.. والله عَزَّ وَجَلَّ يتيح لرسله فُرص الاطلاع على المظاهر الكبرى لقدرته، حتى يملأ قلوبهم ثقة فيه واستنادًا إليه، إذ يواجهون قوى الكفار المتألبة، ويهاجمون سلطانهم القائم.

فقبل أن يرسل الله موسى شاء أن يريه عجائب قدرته، فأمره أن يلقى عصاه: ﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾ [طه:١٩، ٢٣].

فلما ملأ قلبه إعجابًا بمشاهدة هذه الآيات الكبرى قال له بعد ذلك: ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [طه:٢٤].

وقد علمت أن ثمرة الإسراء والمعراج إطلاع الله نبيه على هذه الآيات الكبرى، وربما نقول: إن ذلك حدث بعد الإرسال إليه بقريب من اثنى عشر عامًا على عكس ما وقع لموسى، وهذا حق، وسر ما أسلفنا بيانه من أن الخوارق في سير المرسلين قصد بها قهر الأمم على الاقتناع بصدق النبوة، فهي تدعيم لجانبهم أمام اتهام الخصوم لهم بالادعاء، وسيرة محمد ﷺ فوق هذا المستوى، فقد تكفل القرآن الكريم بإقناع أولى النهي من أول يوم وجاءت الخوارق في طريق الرسول ضرب من التكريم لشخصه، والإيناس له، غير مُعكرة ولا مُعطلة للمنهج العقلي العادي الذي اشترعه القرآن.

وفي قصة الإسراء والمعراج تُلمح أَواصر القربى بين الأنبياء كافة، وهذا المعنى من أصول الإسلام: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ

وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، والتحيات المتبادلة بين النبي وأخوته السابقين توثق هذه الآصرة[1].

٣- **قال صفي الرحمن المباركفوري:** يرى القارئ في سورة الإسراء أن الله ذكر قصة الإسراء في آية واحد فقط، ثم آخذ في ذكر فضائح اليهود وجرائمهم، ثم نبههم بأن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم، فربما يظن القارئ أن الآيتين ليس بينهما ارتباط، والأمر ليس كذلك، فإن الله تعالى يشير بهذا الأسلوب إلى أن الإسراء إنما وقع إلى بيت المقدس، لأن اليهود سيُعزلون عن منصب قيادة الأمة الإنسانية لما ارتكبوا من الجرائم التي لم يبق معها مجال لبقائهم على هذا المنصب، وأن الله سينقل هذا المنصب فعلًا إلى رسوله ﷺ، ويجمع له مركزي الدعوة الإبراهيمية كليهما، فقد آن أوان انتقال القيادة الروحية من أمة إلى أمة، من أمة ملأت تاريخها بالغدر والخيانة والإثم والعدوان، إلى أمة تتدفق بالبر والخيرات، ولا يزال رسولها يتمتع بوحي القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم.

ولكن كيف تنتقل هذه القيادة، والرسول يطوف في جبال مكة مطرودًا بين الناس، هذا السؤال يكشف الغطاء عن حقيقة أخرى، وهي أن دورًا من هذه الدعوة الإسلامية قد أوشك إلى النهاية والتمام، وسيبدأ دور آخر يختلف عن الأول في مجراه، ولذلك نرى بعض الآيات تشتمل على إنذار سافر ووعيد شديد بالنسبة إلى المشركين: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦].

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍۢ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ١٧].

وبجنب هذه الآيات آيات آخرى تبين للمسلمين قواعد الحضارة وبنودها ومبادئها التي يبتنى عليها مجتمعهم الإسلامي، كأنهم قد أووا إلى الأرض[2]، تملكوا فيها أمورهم من جميع النواحي، وكونوا وحدة متماسكة تدور عليها رحى المجتمع، ففيه إشارة إلى أن

---

(١) باختصار من «فقه السيرة» (١٤٣، ١٤٤).

(٢) الأصح في المعنى: «إلى أرض».

الرسول الله ﷺ سيجد ملجأ ومأمنًا يستقر فيه أمره، ويصير مركزًا لبث دعوته في أرجاء الدنيا، هذا سر من أسرار هذه الرحلة المباركة يتصل ببحثنا فآثرنا ذكره، ولأجل هذه الحكمة وأمثالها نرى أن الإسراء إنما وقع قبيل بيعة العقبة الأولى أو بين العقبتين. والله أعلم (١).

٤- قال الحافظ: في فوائد حديث الإسراء والمعراج ما ملخصه: وفي حديث من الفوائد غير ما تقدم: أن للسماء أبوابًا حقيقية وحفظة موكلين بها، وفيه إثبات الاستئذان وأنه ينبغي لمن يستأذن أن يقول: أنا فلان، ولا يقتصر عليّ أنا لأنه يُنافى مطلوب الاستفهام، وأن المار يُسلم على القاعد، وإن كان المار أفضل من القاعد، وفيه استحباب تلقى أهل الفضل بالبشر والترحيب والثناء والدعاء وجواز مدح الإنسان المأمون عليه الافتنان في وجهه، وفيه جواز الاستناد إلى القبلة بالظهر وغيره مأخوذ من استناد إبراهيم إلى البيت المعمور، وهو كالكعبة في أنه قبلة من كل جهة، وفي جواز نسخ الحكم قبل وقوع الفعل، وفيه فضل السير بالليل على السير بالنهار لما وقع من الإسراء بالليل، ولذلك كان أكثر عبادته ﷺ بالليل، وكان أكثر سفره ﷺ بالليل، وقال ﷺ: «**عليكم بالدلجة فإن الأرض تطوى بالليل**» وفيه أن التجربة أقوى في تحصل المطلوب من المعرفة الكثيرة، ويستفاد ذلك من قول موسى عليه السلام للنبي ﷺ أنه عالج الناس قبله وجربهم، ويستفاد منه تحكيم العادة، والتنبية بالأعلى على الأدنى، لأن من سلف من الأمم كانوا أقوى أبدانًا من هذه الأمة، وقد قال موسى إنه عالجهم على أقل من ذلك فما وافقوه، وأشارإلى ذلك ابن أبي جمرة، قال: ويستفاد منه أن مقام الخلة مقام الرضا والتسليم، ومقام التكلم مقام الإدلال والانبساط ومن ثم استبد موسى بأمر النبي ﷺ بطلب التخفيف دون إبراهيم عليه السلام، مع أن للنبي ﷺ من الاختصاص بإبراهيم أزيد مما له من موسى لمقام الأبوة ورفعة المنزلة والاتباع في الملة، وقال غيره: الحكمة في ذلك ما أشار إليه موسى عليه السلام في نفس الحديث من سبقه إلى معالجة

---

(١) «الرحيق المختوم» (١٦٧، ١٦٨).

قومه في هذه العبادة بعينها، وأنهم خالفوه وعصوه، وفيه أن الجنة والنار قد خلقتا، لقوله في بعض طرقه التي بينها «عرضت على الجنة والنار» وقد تقدم البحث في بدء الخلق، وفيها استحباب الإكثار من سؤال الله قال: وتكثير الشفاعة عنده لما وقع منه ﷺ في إجابته مشورة موسى في سؤال التخفيف، وفيه فضيلة الاستحياء وبذل النصيحة لمن يحتاج إليها وإن لم يستشر الناصح في ذلك [١].

٥- **قال محمد سعيد رمضان:** وفي اختيار النبي ﷺ اللبن على الخمر حينما قدمهما له جبريل عليه السلام دلالة رمزية على أن الإسلام هو دين الفطرة ، أي الدين الذي ينسجم في عقيدته وأحكامه كلها مع ما تقتضية نوازع الفطرة الإنسانية الأصيلة، فليس في الإسلام شئ مما يتعارض والطبيعة الأصلية في الإنسان، ولو أن الفطرة كانت جسمًا ذا طول وأبعاد لكان الدين الإسلامي الثوب المفصل على قدره، وهذا من أهم أسرار سعة انتشاره وسرعة تقبل الناس له إذ الإنسان مهما ترقى في مدارج الحضارة، وغمرته السعادة المادية، فإنه يظل نزّاعًا إلى استجابة نوازع الفطرة لديه، ميالًا إلى الانعتاق عن ربقة التكلفات والتعقيدات البعيدة عن طبيعته، والإسلام هوالنظام الوحيد الذي يستجيب لأعمق نوازع الفطرة البشرية[٢].

٩- بيعة العقبة الأولى

قال ابن القيم رحمه الله: ثم إن رسول الله ﷺ لقى عند العقبة في الموسم ستة نفر من الأنصار كلهم من الخزرج، وهم: أبو أمامة أسعد بن زرارة، وعوف بن الحارث، ورافع بن مالك، وقطبة بن عامر، وعقبة بن عامر، وجابر بن عبد الله بن رئاب، فدعاهم رسول الله ﷺ فأسلموا[٣].

---

(١) «فتح الباري» (٧/ ٢٥٨).

(٢) «فقه السيرة» للبوطي (١٢٠،١٢١).

(٣) ذكره ابن القيم في «زاد المعاد» (٣/ ٤٥)، ورواه ابن هشام عن ابن إسحاق في «السيرة» مع اختلاف في اللفظ (٢/ ١٧٦،١٧٧)، وقال محقق زاد المعاد: ورجاله ثقات وسنده حسن.

ثم رجعوا إلى المدينة فدعوهم إلى الإسلام، ففشا الإسلام فيها حتى لم يبق دار إلا وقد دخلها، فلما كان العام المقبل جاء منهم اثنا عشر رجلًا، الستة الأول خلا جابر بن عبد الله، ومنهم معاذ بن الحارث بن رفاعة أخو عمرو المتقدم، وذكوان بن عبد القيس، وقد أقام ذكوان بمكة حتى هاجر إلى المدينة فيقال أنه مهاجري أنصاري، وعبادة بن الصامت، ويزيد بن ثعلبة، وأبو الهيثم بن التيهان، وعويمر بن مالك، هم اثنا عشر(١).

واختلف في ألفاظ هذه البيعة فروى البخاري عن أبي إدريس عائذ الله بن عبد الله عن عبادة بن الصامت من الذين شهدوا بدرًا مع رسول الله ﷺ ومن أصحابه ليلة العقبة، أخبره أن رسول الله ﷺ قال وحوله عصابة من أصحابه: «**تعالوا بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئًا، ولا تُسرقوا، ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه ببين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوني في معروف، فمن وفي منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئًا فعوقب به في الدنيا فهو له كفارة، ومن أصاب من ذلك شيئًا فستره الله فهو إلى الله إن شاء عاقبه، وإن شاء عفا عنه**»(٢).

---

(١) «زاد المعاد» (٣/ ٤٥).

(٢) رواه البخاري (١/ ٨٣) الإيمان، ومسلم (١٠/ ٢٢٢) الحدود، والترمذي (٦/ ٢١٨) الحدود، والنسائي (٧/ ١٤٨) البيعة، وقد رجح الحافظ في الفتح أن هذه الصيغة لم تكن صيغة بيعة العقبة وإنما كانت بيعة أخرى بعد فتح مكة، وقد بايع عبادة البيعتين، ولما كانت بيعة العقبة من أجل ما يمتدح به فكان يذكرها إذا حدث تنويهًا بسابقته رضي الله عنه.

قال الحافظ: والمبايعة المذكورة في حديث عبادة على الصيغة المذكورة لم تقع ليلة العقبة وإنما كان ليلة العقبة ما ذكر ابن إسحاق وغيره من أهل المغازي أن النبي ﷺ قال لمن حضر من الأنصار: «**أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم**» فبايعوه على ذلك، وعلى أن يرحل إليهم هو وأصحابه. وسيأتي في هذا الكتاب في كتاب الفتن وغيره من حديث عبادة أيضًا قال: «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره» الحديث، وأصرح من ذلك في هذا المراد ما أخرجه أحمد والطبراني من وجه آخر عن عبادة أنه جرت له قصة مع أبي هريرة عند معاوية بالشام: فقال: يا أبا هريرة إنك لم تكن معنا إذ بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في النشاط والكسل وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعلى أن نقول بالحق لا نخاف في الله لومة لائم، وعلى أن ننصر رسول الله ﷺ إذا قدم علينا يثرب فنمنعه مما نمنع أنفسنا وأزواجنا وأبناءنا ولنا الجنة، فهذه بيعة رسول الله ﷺ التي بايعناه عليها.

قال ابن إسحاق: فلما انصرف عنه القوم بعث رسول الله ﷺ معهم مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي، وأمره أن يُقرأهم القرآن ويُعلمهم الإسلام ويُفقههم في الدين، فكان يُسمى المقرئ بالمدينة: مصعب وكان منزله على أسعد بن زرارة بن عدس أبي أمامة.

ومن أروع ما يروى وأحسن ما يُستفاد منه في الدعوة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ من هذا الداعية الشاب الذي كان من أترف شباب مكة، ولكنه سبق إلى الإسلام وتخرج على رسول الله عليه الصلاة والسلام ، واختاره ﷺ سفيرًا له في المدينة يطيبها بالإسلام، ويعلمها القرآن، ويجهزها لهجرة النبي عليه الصلاة والسلام ما رواه ابن هشام عن ابن إسحاق قال: وحدثني عبيد الله بن معيقب وعبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: أن أسعد ابن زرارة خرج بمصعب بن عمير يريد دار بني عبد الأشهل ودار بني ظفر، وكان سعد ابن معاذ بن النعمان بن امرئ القيس بن زيد بن عبد الأشهل ابن خاله أسعد بن زراره فدخل به حائطًا من حوائط بني ظفر.

قالا على بئر يقال لها بئر مرق، فجلسا في الحائط واجتمع إليهما رجال ممن أسلم، وسعد بن معاذ وأسيد بن حضير يومئذ سيدًا قومهما من بني عبد الأشهل، وكلاهما مشرك على دين قومه، فلما سمعا به قال سعد بن معاذ لأسيد بن حضير: لا أبا لك انطلق إلى هذين الرجلين الذين قد أتيا دارينا ليسُفها ضُعفاءنا فازجرهما وانههما عن أن يأتيا دارينا، فإنه لولا أن أسعد بن زرارة منى حيث قد علمت كفيتك ذلك، هو ابن خالتي، ولا أجد عليه مقدمًا. قال: فأخذ أُسيد بن حضير حربته ثم أقبل إليهما، فلما رآه أسعد بن زراره قال لمصعب بن عمير: هذا سيد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه. قال مصعب : إن يجلس أكلمه. قال: فوقف عليهما متشتمًا، فقال: ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا؟

=ثم قال: والذي يقوي أنها وقعت بعد فتح مكة، بعد أن نزلت الآية التي في الممتحنة وهي قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ [الممتحنة:١٢] ونزول هذه الآية متأخر بعد قصة الحديبية بلا خلاف. باختصار من الفتح (١/ ٨٤، ٨٥) السلفية.

اعتزلانا إن كنت لكما بأنفسكما حاجة، فقال له مصعب: أو تجلس فتسمع، فإن رضيت أمرًا قبلته وإن كرهته كف عنك ما تكره.

قال: أنصفت. ثم ركّز حربته وجلس إليهما فكلمه مصعب بالإسلام وقرأ عليه القرآن، فقالا فيما يذكر عنهما: والله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم في إشراقه وتسهله، ثم قال: ما أحسن هذا الكلام وأجمله!! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟ قالا: تغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي، فقام فاغتسل وطهر ثوبيه وتشهد شهادة الحق ثم قام فركع ركعتين ثم قال لهما: إن ورائي رجلًا إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه وسأرسله إليكما الآن، سعد بن معاذ، ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس في ناديهم، فلما نظر إليه سعد ابن معاذ مقبلًا، قال: أحلف بالله لقد جاءكم أُسيد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف على النادي قال له سعد: ما فعلت؟ قال: قد كلمت الرجلين فوالله ما رأيت بهما بأسًا وقد نهيتهما فقالا: نفعل ما أحببت، وقد حدثت أن بني حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه وذلك أنهم قد عرفوا أنه ابن خالتك ليخفروك، قال: فقام سعد مغضبًا مبادرًا تخوفًا للذي ذكر له من بني حارثة، فأخذ الحربة من يده ثم قال: والله ما أراك أغنيت شيئًا ثم خرج إليهما فلما رآهما سعد مطمئنين عرف سعد أن أُسيدًا إنما أراد منه أن يسمع منهما، فوقف عليهما متشتمًا ثم قال لأسعد بن زرارة، يا أبا أمامة: لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رمت هذا مني، أتغشانا في ديارنا بما نكره.

وقد قال أسعد بن زرارة لمصعب بن عمير: أى مصعب جاءك والله سيد من وراءه قومه إن يتبعك لا يتخلس منك منهم اثنان، قال فقال له مصعب: أو تقعد فتسمع فإن رضيت أمرًا ورغبت فيه قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره.

قال سعد: أنصفت ثم ركّز الحربة وجلس فعرض عليه الإسلام وقرأ عليه القرآن، قالا: فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم لإشراقه وتسهله، ثم قال لهما كيف

تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين، قالا: تغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك ثم تشهد شهادة الحق ثم تصلي ركعتين، قال: فقام فاغتسل وطهر ثوبيه وتشهد شهادة الحق ثم ركع ركعتين، ثم أخذ حربته فأقبل عامدًا إلى نادي قومه ومعه أسيد بن خضير.

فلما رآه قومه مقبلًا، قالوا: نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل كيف أمري فيكم؟ قالوا: سدينا وأفضلنا رأيًا، وإيمننا نقيبة، قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تؤمنوا بالله وبرسوله. قالا: فوالله ما أمسى في دار بني الأشهل رجل ولا أمرأة إلا مسلمًا ومسلمة، ورجع أسعد ومصعب إلى منزل أسعد بن زرارة فأقام عنده يدعو الناس إلى الإسلام حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون، إلا ما كان من دار بني أمية بن زيد، وخطمة ووائل وواقف [(١)].

الفوائد والآثار الإيمانية:

١ - في هذا الباب وما ختمناه به من قصة مصعب بن عمير في المدينة بيان فضل مصعب وكيف اختاره الرسول ﷺ لفتح قلوب وديار أهل المدينة الإسلامية، وكيف نجح رضي الله عنه أيما نجاح في هذه المهمة وظهرت آثار الدعوة المباركة في عامٍ واحد، حتى لم يبق بيت إلا ودخله إسلام، إما آمن بعضه أو آمن كله إلا ما ذكره ابن إسحاق، وهذا يدل على فضل الصحابة عمومًا، وفضل هذا الداعية المبارك الذي عرف كيف تكون الدعوة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، وكذلك فضل أسعد بن زرارة، وكيف كان له نعم الناصر والناصح واسمعه وهو يقول لمصعب: «هذا سيد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه»، فكان من جزاء الصدق وبركته أن آمن بدعوته رجلان كانا سببًا في إسلام قومهما، وكان جميع ذلك في ميزان مصعب وأسعد بن زرارة رضي الله عنهما، وقد قال النبي ﷺ: «**لئن**

(١) «الروض الأنف» مع «سيرة ابن هشام» (٢/ ١٨٦، ١٨٧).

يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من حمر النعم» [١]. وقال: «**من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعة لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا»** [٢].

٢- في هذا الباب كذلك فضل الأنصار وكيف أن الله عَزَّ وَجَلَّ جبلهم على الصدق والشهامة والمروءة، وكيف هيأ أنفسهم لقبول هذا الدين ومناصرة سيد الأولين والآخرين، وفيه فضل سعد بن معاذ الذي اهتز عرش الرحمن لوفاته، وأُسيد بن حضير الذي نزلت الملائكة تسمع لقراءته وقال له النبي ﷺ: «**لو قرأت لأصبحت ينظر إليها الناس ما تستتر منهم**»[٣].

٣- في هذا الباب كذلك بيان ثمرات التربية الصحيحة، وكيف أن التربية قد تستغرق زمنًا طويلًا من أجل بناء من يحمل الدعوة ويُبلغها، ولكنها بعد ذلك تثمر الثمرات الجليلة الكثيرة في زمن يسير، فهذا مُصعب بن عمير الذي رباه النبي ﷺ على الإسلام وسقاه القرآن، كيف فتح الله عَزَّ وَجَلَّ به، وأني أتخيل أحيانًا رجلًا من الصحابة الكرام يبعث في زماننا هذا كيف ينفع الله به، وكيف يفتح على يديه، وإن شئت قلت أحد علماء السلف الذين جمعوا بين العلم والعمل كشيخ الإسلام ابن تيمية أو تلميذه ابن القيم، لو بعث في زماننا وقام بالدعوة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ فإني على يقين من أن النفع الذي يأتي منه الخير الذي يُساق على يديه من فتح البلاد وقلوب العِباد بالإسلام يكون أكثر من آلاف من الدُّعاة المعاصرين الذين يقضون أعمارهم في الدعوة، والفرق بيننا وبين هؤلاء الأعلام هو العلم والتربية، والعلم إن كان لله عَزَّ وَجَلَّ فهو أيضًا تربية، فظهرت بذلك بركة التربية التي يظن كثير من أصحاب الاتجاهات الإسلامية المعاصرة أنها ليست بذات قيمة، وأن إنفاق الناس أعمارهم فيها ليس فيه فائدة ولا عائدة، وأنها من باب تضييع

---

(١) رواه البخاري (٧/ ٨٧) فضائل الصحابة، ومسلم (١٥/ ١٧٨) فضائل الصحابة، ورواه أبو داود بلفظ: «والله لأن يُهدى بهداك رجل واحد خير لك من حمر النعم» [٣٦٤٤] العلم.

(٢) رواه مسلم (١٦/ ٢٢٧) العلم.

(٣) رواه مسلم (٦/ ٨٢، ٨٣) صلاة المسافرين، والبخاري تعليقًا مجزومًا به في فضائل القرآن.

الزمان، وأن الإسلام يمكن أن يقوم بأناس ما تربوا بالعقيدة الصحيحة وقيام الليل، وصيام النهار، كما تربى الصحابة الكرام، وإنما أطلنا النفس في هذه الفائدة لأنها مقصود الكتاب ولُب الخطاب، فنسأل الله أن يوفقنا لسلوك سبيل الصحابة الكرام، وأن يعز الله تعالى بنا الدين كما أعزه بالسابقين الأولين، وأن يجمعنا بهم مع سيد الأولين والاخرين يوم يقوم الناس لرب العالمين.

٤- قال الدكتور محمد سعيد رمضان: إحدى عشرة سنة من الجهاد والصبر المتواصل في سبيل الله وحده هي الثمن والطريق إلى نشأة مد إسلامي زاخر عظيم، ينتشر في شرق العالم وغربه، تتساقط أمامه قوة الروم، وتتهاوى بين يديه عظمة فارس، وتذوب من حوله قيم النظم والحضارات.

ثمن من الجهاد والصبر والتعب وخوض الشدائد، كان من السهل جدًا على الله عَزَّ وَجَلَّ ان يُقيم دعائم المجتمع الإسلامي بدونه، ولكن تلك هي سنة الله في عباده، أراد أن يحقق فيهم التعبد اختيارًا كما تحققت فيهم صفة العبودية له إجبارًا، ولا يتحقق التعبد بدون بذل الجهد، ولا يمحص الصادق من الكذب بدون عذاب أو استشهاد، وليس من العدل أن يكسب الإنسان الغنم دون أن يبذل على ذلك شيئًا من الغرم. من أجل ذلك كلف الله الإنسان بأمرين اثنين:

١- إقامة شِرعة الإسلام ومجتمعه.

٢- السير في ذلك في طريق شائكة مُجهدة غير معبدة[1].

قلت والدليل عليه مع أحداث السيرة وكذلك سيرة جميع الرسل قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ [محمد: ٤-٦].

(١) «فقه السيرة» (١٢٤، ١٢٥) باختصار.

١٠- بيعة العقبة الثانية

روى ابن إسحاق وعنه أحمد وغيره من حديث كعب بن مالك في قصة العقبة الثانية قال: «.. فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لمعاد رسول الله ﷺ نتسلل تسلل القطا مستخفين، حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة ونحن ثلاثة وسبعون رجلًا ومنا امرأتان من نسائنا نسيبة بنت كعب، أم عمارة إحدى نساء بني مازن بن النجار، وأسماء بنت عمرو بن عدى بن نابي إحدى نساء بني سلمه، وهى أم منيع، قال: فاجتمعا في الشعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا ومعه العباس بن عبد المطلب، وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له، فلما جلس كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب، فقال: يا معشر الخزرجَ قال وكانت العرب يسمون هذا الحي من الأنصار الخزرج خزرجها وأوسهاَ: إن محمدًا منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عزٍ من قومه ومنعة في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه، فإنه في عِز ومنعة من قومه وبلده. قال: فقلنا له قد سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت قال: فتكلم رسول الله ﷺ فتلا القرآن ودعا إلى الله ورغب في الإسلام قال: أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم، قال: فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال: نعم والذي بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أهل الحروب وأهل الحلقة ورثناها كابرًا عن كابر. قال: فاعترض القول والبراء يكلم رسول الله أبو الهيثم بن التيهان فقال: يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حِبالًا وإن قاطعوها -يعني اليهود- فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ قال: فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: «**بل الدم الدم والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم**»[(١)].

---

(١) قال ابن هشام: ويقال الهدم الهدم: أي ذمتي ذمتكم وحرمتي حرمتكم، سيرة ابن هشام مع «الروض الأنف» (٣/ ١٨٩).

قال كعب : وقد قال رسول الله ﷺ أخرجوا إلى منكم اثنى عشر نقيبًا ليكونوا على قومهم بما فيهم، فأخرجوا منهم اثنى عشر نقيبًا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس. قال كعب: كان أول من ضرب على يد رسول الله ﷺ البراء بن معرور ثم بايع بعده القوم.

فلما بايعنا رسول الله ﷺ صرخ الشيطان من رأس العقبة بأنفذ صوت سمعته قط: يا أهل الجباجب[1] هل لكم في مذمم والصباة[2] معه قد اجتمعوا على حربكم، قال: فقال رسول الله ﷺ : «**هذا أزب[3] العقبة، هذا أزب العقبة**»، ويقال: ابن أزيب استمع أي عدو الله أما والله لأفرغن لك. قال: ثم قال رسول الله ﷺ : «**ارفضوا إلى حالكم**» قال: فقال له العباس بن عبادة بن فضالة والله الذي بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل مني غدًا بأسيافنا. قال: فقال رسول الله ﷺ : «**لم نؤمر بذلك ولكن ارجعوا إلى رحالكم**» قال: فرجعنا إلى مضاجعنا فنمنا عليها حتى أصبحنا. فلما أصبحنا غدت علينا جلة قريش حتى جاءونا في منازلنا فقالوا: يا معشر الخزرج إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا، وإنه والله ما من حي من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم، قال: فانبعث من هناك من مشركي قومنا يحلفون بالله ما كان من هذا شئ، وما علمناه. قال: وقد صدقوا، لم يعلموه، قال: وبعضنا ينظر إلى بعض قال: ثم قام القوم وفيهم الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومي، وعليه نعلان جديدان قال: فقلت له كلمه كأني أريد أن أشرك القوم بها فيما قالوا: يا أبا جابر أما تستطيع أن تتخذ وأنت سيد من ساداتنا مثل نعلى هذا الفتى من قريش؟ قال: فسمعها الحارث فخلعها من رجليه ثم

(١) **الجباجب**: المنازل.

(٢) **الصباة**: أي الذين خرجوا عن دين آبائهم.

(٣) **أزب العقبة**: شيطانها، **والأزب**: القصير الماكر والبخيل الخبيث.

رمى بها إلي وقال: والله لتنعلنهما، قال: يقول أبو جابر: مه أحفظت والله الفتى فأردد إليه نعليه. قال: قلت: لا والله لا أردهما فأل والله صالح لئن صدق الفأل لأسلبنه(١).

الفوائد والآثار الإيمانية:

١ - **قال الغزالي:** تلكم بيعة العقبة وما أبرم فيها من مواثيق وما دار فيها من محاورات، إن روح اليقين والفداء والاستبسال سادت هذا الجمع وتمشت في كل كلمة قيلت، وبدا أن العواطف الفائرة ليست وحدها التي توجه الحديث أو تملي العهود، كلا فإن حساب المستقبل روجع مع حساب اليوم، والمغانم المتوقعة نظر إليها قبل المغانم الموهومة.

فقد جاءوا من يثرب مؤمنين أشد الإيمان، وملبين داعي التضحية مع أن معرفتهم بالنبي ﷺ كانت لمحة عابرة غبرت عليها الأيام، وكان الظن بها أن تزول لكننا لا يجوز أن ننسى مصدر هذه الطاقة المتأججة من الشجاعة والثقة، إنه القرآن، لئن كان الأنصار قبل بيعته الكبرى لم يصحبوا الرسول إلا لِمامًا، إن الوحي المشع من السماء أضاء لهم الطريق وأوضح الغاية.

لقد نزل بمكة قريب من نصف القرآن، سال على ألسنة الحفاظ وتداولته صحائف السفرة الكرام البررة، والقرآن النازل بمكة صوَّر جزاء الآخرة رأى العين فتوشك أن تمد يدك تقطف من أثمار الجنة، ويستطيع الأعرابي المتعشق للحق أن ينتقل في لحظة فداء من رمضان الجزيرة إلى أنهار النعيم، والرحيق المختوم.

وحكى القرآن أخبار الأولين كيف أخلص المؤمنون فنجوا مع رسلهم، وكيف طغى الكفار وأسكرهم الإمهال فتعتنوا وتجبروا، ثم حلّ العدل الإلهي فذهب الظالمون بددًا، وتركوا وراءهم دنيا مدبرة ودورًا خربة.

(١) رواه ابن هشام عن ابن إسحاق (٢/ ١٨٧، ١٩٢) بأطول من هذا وعنه أحمد في «المسند» (٣/ ٤٦٠، ٤٦٣)، والطبراني (١٩/ ٨٧، ٩١) والحديث بطوله في «مجمع الزوائد» (٦/ ٤٢، ٤٦) وقال الهيثمي: رواه أحمد والطبراني بنحوه ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق، وقد صرح بالسماع وقال الألباني في تحقيق «فقه السيرة»: وهذا سند صحيح وصححه ابن حبان كما في «الفتح» (٧/ ٤٧٥).

فَـأدبـرُوا وَوجُـوهُ الأرضِ تَلعَنُهُمْ كَبَـاطلٍ مِـن جَـلالِ الحَـقِّ مُنْهَزِم

الإيمان بالله والحب فيه والأخوة على دينه والتناصر باسمه، ذلك كله كان يتدافع في النفوس المجتمعة في ظلام الليل بجوار مكة السادرة في غيها، يتدافع ليعلن أن أنصار الله سوف يحمون رسوله كما يحمون أعراضهم ويمنعونه بأرواحهم فلا يخلص إليه أذى وهم أحياء، إن مشركي مكة حسبوا أنهم حصروا الإسلام في نطاق لا يعدوه وأرهقوا المسلمين حتى شغلوهم بأنفسهم فناموا نَومة المجرم الذي اقترف الإثم وأمِن القصاص.

حسنتَ ظَنَّك بالأيام إذا حَسُنتْ ولم تَخَف سوء ما يأتي به القَدَرُ

وَسَالَمَتك الليالي فاغتررت بِهَا وعَندَ صفْو الليالي يَحدثُ الكَدرُ

أجل ففي الليلة تحالف جند الحق ان يقسما ظهر الوثنية، وأن ينتهوا بالجاهلية ورجالها إلى الفناء(١).

٢- لعل أصحاب الفكر المتسرع الذين يظنون أن الإ سلام يمكن أن يُمكَّن بضربة خاطفة يعتبرون بما حدث في هذه البيعة، وكيف أن الأنصار وهم أهل حرب ودراية، وقد عرضوا على رسول الله ﷺ أن يميلوا على أهل الوادي فيقتلونهم، فنهاهم ﷺ عن ذلك وقال: إني لم أُومر بذلك، فتعجل الثمار قد يضيع الجهد المبذول، ولا تؤتي الحركة الإسلامية ثمارها، وتكون النتيجة خسارة الأفراد الموجودين وضياع دعوتهم في مقابل مصلحة متوهمة وهذا شاهد لقول النبي ﷺ لخباب: «**ولكنكم تستعجلون**»(٢).

٣- **قال الأستاذ محمد سعيد رمضان**: يتجلى لدى التأمل فيما سردناه من كيفية بدء إسلام الأنصار، أن الله عَزَّ وَجَلَّ قد مهد حياة المدينة وبيئتها لقبول الدعوة الإسلامية، وأنه كان في صدر أهل المدينة تهيؤ نفسي لقبول هذا الدين.

---

(١) «فقه السيرة» (١٦١، ١٦٣) باختصار.

(٢) تقدم تخرجه.

لقد كان سكان المدينة المنورة خَليطًا من سكانها الأصليين وهم العرب المشركون واليهود المهاجرين إليها من أطراف الجزيرة، وكان المشركون ينقسمون إلى قبيلتين كبيرتين: إحداهما الأوس، والثانية الخزرج. وكان اليهود ثلاث قبائل: بني قريظة وبني النضير وبني قينقاع. ولقد احتال اليهود طويلًا كعادتهم حتى زرعوا الضغائن بين قبيلتى الأوس والخزرج، فراح العرب يأكل بعضهم بعضًا في حروب طاحنة متلاحقة، وفي غمار هذه الخصومة الطويلة حالفت كل من الأوس والخزرج قبيلة من اليهود، فحالف الأوس بني قريظة، وحالف الخزرج بني النضير وبني قينقاع، وكان آخر ما بينهم من المواقع موقعة بُعاث، وذلك قبل الهجرة بسنوات قليلة، وكان يومًا عظيمًا مات فيه أكثر رؤسائهم، في أثناء ذلك كان كلما وقع شئ بين العرب واليهود، هدد اليهود في أثناء ذلك بأن نبيًا قد آن أوان بعثته، وأنهم سيكونون من أتباعه ويقتلونهم معه قتل عاد وإرم.

فهذه الظروف جعلت لدى أهل المدينة تطلعًا إلى هذا الدين، وعلقت منهم أمالًا قو ية به، عسى أن تتوحد بفضله صفوفهم ويعود فيلتئم شملهم، وتذوب وتمحى أسباب الشقاق مما بينهم. ولقد كان هذا مما صنعه الله لرسوله كما يقول ابن القيم في «زاد المعاد» حتى يُمهد بذلك لهجرته إلى المدينة، حيث اقتضت رحمة الله أن تكون هي المنطلق للمد الإ سلامي في أرجاء الأرض كلها[1].

٤- **قال ابن إسحاق:** وكان رسول الله ﷺ قبل بيعة العقبة لم يؤذن له في الحرب ولم تحلل له الدماء، إنما يؤمر بالدعاء إلى الله والصبر على الأذى والصفح عن الجاهل، وكانت قريش قد اضطهدت من اتبعه من المهاجرين حتى فتنوهم عن دينهم ونفوهم من بلادهم، فهم بين مفتون في دينه ومن بين معذب في أيديهم وبين هارب في البلاد فرارًا منهم، منهم من بأرض الحبشة، ومنهم من بالمدينة وفي كل وجه، فلما عتت قريش على الله عَزَّ وَجَلَّ، وردوا عليه ما أرادهم به من الكرامة،

(١) «فقه السيرة» (١٢٦، ١٢٧) باختصار.

وكذبوا نبيه ﷺ، وعذبوا ونفوا من عبده وحده وصدق نبيه واعتصم بدينه، أذن الله عزَّ وجلّ لرسوله ﷺ في القتال والانتصار ممن ظلمهم وبغى عليهم، فكانت أول آية أنزلت في إذنه له في الحرب وإحلاله له الدماء والقتال لمن بغى عليهم فيما بلغني عن عروة بن الزبير وغيره من العلماء قول الله تبارك وتعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٣٩-٤١]، أي إنما أحللت لهم القتال لأنهم ظلموا، ولم يكن لهم ذنب فيما بينهم وبين الناس إلا أن يعبدوا الله، وأنهم إذا ظهروا أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، يعني النبي ﷺ وأصحابه - رضي الله عنهم أجمعين -[(١)].

---

(١) «سيرة ابن هشام» مع «الروض الأنف» (٢/ ٢١١).